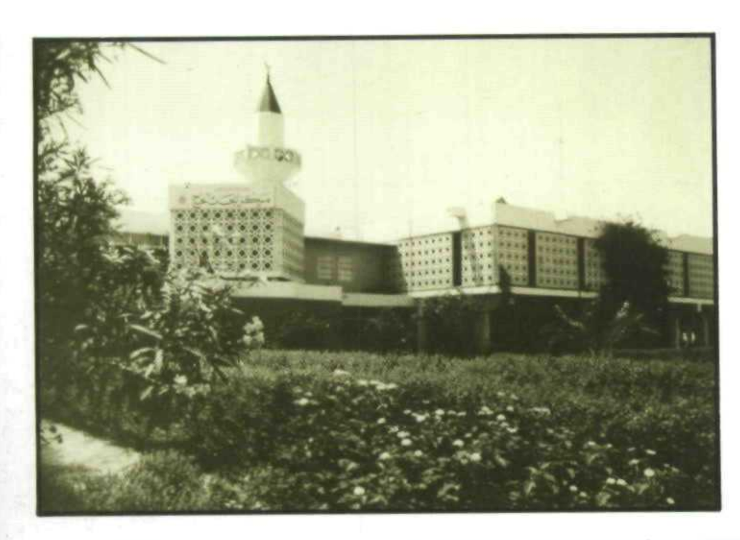


ذوالحجة ١٤٠٨هـ - يوليو/اغسطس ١٩٨٨م



مركز أبحاث الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

القافلة

THE CARAVAN- JULY/AUG. 1988

ذو الحجة ١٤٠٨هـ - يوليو/اغسطس ١٩٨٨م
العدد الثاني عشر - المجلد السادس والعشرون

مجلة ثقافية
تصدر شهرياً عن شركة أرامكو لموظفيها
إدارة العلاقات العامة

توزع مجاناً


مركز ابحاث الحج


مدينة الفتح الاسلامية في سيكري


الحمى عند الاطفال


غرائب وعجائب في عالم العناكب

صورة الغلاف: انشأت حكومة خادم الحرمين الشريفين أنفاقا عديدة في مكة المكرمة لحل مشكلة المرور وحركة الحجيج في موسم الحج.

- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير.
- كل ما ينشر في "القافلة" يعبر عن آراء الكتاب أنفسهم ولا يعبر بالضرورة عن رأي القافلة أو عن اتجاهها.
- يجوز اعادة نشر المواضيع التي تظهر في القافلة دون إذن مسبق على أن تذكر كمصدر.
- لا تقبل القافلة إلا المواضيع التي لم يسبق نشرها.

العنوان
صندوق البريد رقم ١٣٨٩
الظهران - ٣١٣١١
المملكة العربية السعودية
هاتف: ٨٧٥٦٣٩٢

تنفيذ وطباعة شركة مطابع المطوع - الدمام - المملكة العربية السعودية
DESIGNED AND PRINTED BY AL-MUTAWA PRESS CO. - DAMMAM

عيد مبارك

إنه لمن دواعي غبطتي وسروري أن أنتهز فرصة حلول عيد الأضحى المبارك لأقدم لإخواني موظفي الشركة أحر التهاني وأسمى الأماني بهذه المناسبة الكريمة. أعادها الله على الجميع بالخير واليمن والبركات.

علي النعيمي

رئيس الشركة وكبير الإداريين التنفيذيين

كل عام وأنتم بخير

يسر هيئة التحرير أن تغتنم هذه المناسبة الكريمة لترفع إلى مقام خادم الحرمين الشريفين وولي عهده الأمين وإلى المسلمين كافة وإلى القراء الكرام أخلص التهاني وأطيب التمنيات ضارعة إلى العلي القدير أن يعيده عليهم باليمن والبركات رافلين بأثواب السعادة والرخاء.

هيئة التحرير







بقلم: سليمان نصر الله / هيئة التحرير

تجند حكومة المملكة العربية السعودية في موسم الحج كل طاقاتها وجل أجهزتها لخدمة ضيوف الرحمن، تجسيداً لحرص خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز على أمن وراحة حجاج بيت الله الحرام، وتأكيداً لدور المملكة الرائد في هذا المجال، بوصفها المسؤولة الوحيدة عن تنظيم شؤون الحج، وتيسير هذه الفريضة، لكل مسلم يفد اليها، في أمن وطمأنينة. وما مركز أبحاث الحج، الذي تحتضنه جامعة أم القرى بمكة المكرمة، الأنموذج لذلك الحرص، فهو جهاز متخصص، يضطلع القائمون عليه بدراسات وأبحاث علمية تطبيقية هادفة، الغرض منها المساعدة في توفير أسباب الراحة للحجيج من جهة، والحفاظ على التراث الحضاري للمدينتين المقدستين، مكة المكرمة والمدينة المنورة، من جهة أخرى.

كل من يفد الى المملكة العربية السعودية حاجا، أو معتمرا، أو زائرا، يدرك منذ الوهلة الأولى التي تطأ فيها أقدامه الأرض المقدسة، الجهود المخلصة التي تبذلها حكومة المملكة، في سبيل أمن وراحة ضيوف الرحمن. إن الشواهد الحية في أرجاء مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والمشاعر المقدسة، لتؤكد صدق التفاني في تهيئة الظروف المريحة لكل حاج. وإذا كنا نعرف أن مكة المكرمة والمشاعر المقدسة، منى وعرفات ومزدلفة، تستقبل حاليا نحو ثلاثة ملايين حاج في موسم الحج، وما يشكله هذا العدد الضخم من الحجيج، في أيام معدودات لا تتجاوز عدد أصابع اليدين، من ضغط هائل على الخدمات العامة، ندرك أهمية مركز أبحاث الحج وجسامة الأعباء الملقاة على كاهل القائمين عليه، من إداريين، وباحثين، ومهندسين، وفنيين. هذا المركز المتخصص، يضطلع بدراسات ميدانية وأبحاث علمية هادفة، تتعلق بمشاعر الحج وبالحجيج بمكة المكرمة، والمدينة المنورة، وتقدمها للجهات الحكومية المعنية بهذا الأمر، كوزارة الداخلية، ووزارة الحج والأوقاف، وإمارة منطقة مكة المكرمة، وبعض المؤسسات الأهلية والهيئات والجمعيات ذات العلاقة بالحج وأنشطته. هذه الدراسات الميدانية تسهم الى حد كبير في معالجة قضايا الحج المختلفة، من نقل، وإيواء، ونظافة، الى توفير الخدمات البريدية، والهاتفية، والعلاجية، وغير ذلك من الخدمات. فمكة المكرمة تعتبر خلال موسم الحج نموذجا فريدا بين مدن العالم من حيث وظيفتها، إذ تكتظ بالحجيج من جميع أرجاء العالم لفترة قصيرة جدا، يغدو معها توفير الخدمات العامة أمرا بالغ الأهمية، توليه الحكومة السعودية جل إهتمامها، وذلك نابع من حرصها على توفير أرفع مستوى ممكن من الخدمات العامة لضيوف الرحمن. ويضم المركز قدرات علمية متميزة، ذات تخصصات مختلفة، تعكف على إعداد الدراسات الميدانية والأبحاث التطبيقية، التي تتناول جوانب كثيرة من أنشطة الحج، فضلا عن تلمّس أنجع السبل والأساليب المتطورة للحفاظ على التراث الحضاري الاسلامي والأنماط المعمارية لكل من مكة المكرمة والمدينة المنورة.

فكرة انشاء مركز ابحاث الحج:

التقينا بالمهندس المعماري سامي محسن عنقاوي، مدير عام المركز، والدكتور عدنان عبدالبديع اليافي، نائب المدير العام. وقمنا بجولة شملت جميع أقسام المركز ومرافقه، بمصاحبة الدكتور اليافي، الذي حدثنا عن المهام المنوطة بكل قسم، وعن التجهيزات والمعدات المتطورة التي زود بها المركز، لتكون عونا للباحثين.



١ — الاستاذ سامي محسن عنقاوي، مدير عام مركز أبحاث الحج، يتحدث عن نشاطات المركز.

الجدير بالذكر ان هذا المركز قد أنشىء عقب صدور قرار مجلس الوزراء عام ١٤٠١هـ، إنطلاقا من اهتمام حكومة خادم الحرمين الشريفين بتقديم أفضل الخدمات لضيوف الرحمن وتيسير السبل لهم لتأدية فريضة الحج في سهولة ويسر، واقتناع المسؤولين في الدولة، وعلى رأسهم خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز، بأهمية البحث العلمي ودوره الفعال في خدمة المخططين والمسؤولين ومتخذي القرارات. وقد شكلت لجنة عليا للاشراف على برامج هذا المركز وأنشطته برئاسة سمو وزير الداخلية. وكان هذا المركز تابعا لجامعة الملك عبدالعزيز عند إنشائه وفي عام

١٤٠٣هـ صدر أمر سام بنقل تبعية المركز الى جامعة أم القرى.

كما حدثنا الأستاذ سامي محسن عنقاوي، مدير عام المركز، الذي ألقى الأضواء على أهداف المركز وأهميته والمشاريع التي يتولاها، فقال: تنبع أهمية المركز من اهتمام حكومة خادم الحرمين الشريفين، الملك فهد بن عبدالعزيز، بالحجيج ومكة المكرمة والمدينة المنورة والمشاعر المقدسة. ففي هذه البقعة الطاهرة يلتقي الحجاج على صعيد اسلامي فريد، ليتعارفوا وليذكروا اسم الله في أيام معدودات. إنه لقاء يؤلف بين قلوب المسلمين ويوحّد أهدافهم رغم تباين الجنس واللغة واللون. هذا الحشد الهائل من الحجاج الذي تستقبله مكة المكرمة كل عام يتطلب من الجهات الحكومية المعنية بشؤون الحج تخطيطا وتنسيقا وتحضيرا بشكل متكامل دقيق، كي يؤدي ضيوف الرحمن نسك الحج بسهولة ويسر. وهذا في حد ذاته يحتاج الى دراسات مستفيضة تتناول كل ما تنطوي عليه مناسك الحج من نقل، وخدمات عامة، وايواء، وطواف، وسعي، ورمي الجمرات، وفق ما شرع الله. وهذه ليست عملية سهلة، إنها عملية مستمرة استمرار الحج. وليس بخاف على احد أن الإعداد لمثل هذا الحدث السنوي الجلل ينطوي على متغيرات ومستجدات كثيرة، أدركها ولاة الأمر في هذا البلد الكريم، وارتأوا إقامة مركز دائم يتولى دراسة أمور الحج بكل دقائقها، ويجمع المعلومات ويقوم بتنسيقها وتحليلها وتقديمها الى الجهات المسؤولة، ومن هنا بدأت انطلاقة المركز الفعلية عام ١٣٩٥هـ. ويسرني أن أقول ان المركز، بمؤازرة ودعم اولي الأمر في المملكة، استطاع ان يحقق انجازات كبيرة وراح يعطي ثماره الطيبة كجهة استشارية علمية، يساعد جميع الجهات الحكومية وكل جهة لها علاقة بالحج، وعلى رأسها لجنة الحج العليا،ولجنة الحج المركزية ،واللجان المتفرعة عنهما، بالاضافة الى وزارة الداخلية، ووزارة الحج والأوقاف، وإمارة منطقة مكة المكرمة، وغيرها. والمركز يستعين بالخبرات والتخصصات المتنوعة المتوفرة في جامعات المملكة كلها.

ثم تطرق الاستاذ عنقاوي الى أهداف المركز قائلا: للمركز ثلاثة أهداف، أولها تأسيس بنك للمعلومات عن الحج يضم مختلف الاحصاءات والبيانات والحقائق لتساعد في تخطيط مرافق وخدمات الحج، بقصد تكوين قاعدة قوية ترتكز عليها جميع القرارات المتخذة تجاه المشاريع،التي تهدف الى خدمة ضيوف الرحمن، وثانيها توثيق سجل تاريخي متكامل عن الحج ومكة المكرمة والمدينة المنورة يضم الوثائق والصور والخرائط وغيرها، وثالثها المحافظة على البيئة



منظر عام داخلي لمركز أبحاث الحج في مدينة جدة.



صورة جوية ارشادية لمنطقة منى عام ١٤٠٧هـ يقوم المركز باعدادها سنويا قبيل موسم الحج.

إن مركز أبحاث الحج يستمر في دراساته وأبحاثه وتجاربه طوال العام، وتصل هذه الدراسات والتجارب ذروتها في مواسم الحج، حيث يقدم المركز حلوله العملية والتطبيقية الشاملة المتدرجة، في شكل استشارات ونصائح الى الجهات المهتمة بشؤون الحج. وتصدر الدراسات التي يضطلع بها المركز في ثلاثة أنواع من التقارير: أولها التقرير السنوي لأعمال مركز أبحاث الحج، ويضم دراسات تتعلق بموسم حج ذلك العام بالاضافة الى ما تم انجازه في المركز طوال العام. وثانيها تقرير خاص بموسم الحج، يتضمن نبذة مختصرة عما تم عمله من تجارب وحلول في ذلك الموسم فقط. ولعل من المفيد ان المركز قد درج على تجميع هذا النوع من الدراسات منذ عام ١٤٠٠هـ. ومن هذا المختصر يمكن للباحث أو المهتم بمسائل الحج الرجوع الى التقارير التفصيلية لكل موضوع. وهذه التقارير التفصيلية تعتبر النوع الثالث من التقارير التي يعدها المركز، وفيها تفصيل لكل مسألة من مسائل الحج وتشخيص طرق علاجها التدريجي.

الاسلامية والطبيعية لمكة المكرمة والمدينة المنورة والمشاعر المقدسة. وقد مررنا في باذىء الأمر بمرحلة جمع المعلومات وتصنيفها وتنسيقها وتحليلها، وهي مرحلة يمكن أن نطلق عليها المرحله الاكاديمية، ثم تجاوزناها لنصبح جهة استشارية فنية علمية، حيث راح المركز يقترب من الجوانب التنفيذية، وذلك بالاستفادة من المعلومات التي تم جمعها عبر سني المركز الأولى، بتطبيقها علميا في مسائل متعلقة بالحج. والناحية التطبيقية هي الهدف الرئيسي للمركز في الوقت الحاضر، إذ أن المركز يختلف عن الجامعة من حيث أن عمله لا يقتصر على الأعمال الاكاديمية فحسب، وإنما التطبيقية أيضا، وذلك بالاستفادة عمليا مما يقدمه الاكاديميون. ولكي يحقق المركز أهدافه فقد كوَّن هيكلا تنظيميا يتألف من ست ادارات رئيسية وهي: إدارة البحوث، وإدارة الشؤون الاكاديمية، وإدارة المركز، ومركز المعلومات، وخدمات المركز، ومكتب المدير العام ونائبه. أما الأقسام البحثية فتشمل الدراسات العمرانية والبيئية والحضارية. ويضم المركز أيضا مكتبة ومعملا للتصوير الملون وحاسبا آليا، ويوجد لديه أرشيف من شرائح الصور الملونة يضم عشرات الآلاف من الشرائح التي التقطت بالمشاعر المقدسة منذ بداية العمل بالمركز وحتى الآن، كما يوجد به أرشيف ضخم من الأفلام السينمائية وآخر من أفلام الفيديو ومن التسجيلات الصوتية والصور الجوية، وكلها عن الحج ومكة المكرمة والمدينة المنورة. ويعتمد المركز على الوسائل التعليمية المتقدمة في إجراء الدراسات وجمع المعلومات، ويتضمن ذلك المسوحات الاحصائية والتصوير الجوي والأجهزة والمعدات الالكترونية الحديثة وأجهزة القياس المتطورة وغيرها.

ابحاث تطبيقية قيمة ونشاطات جمة:

لقد قام المركز، منذ بداية نشأته، بإجراء العديد من الدراسات، التي تناولت مختلف الموضوعات والجوانب المتعلقة بالحج، وكان لهذه الدراسات وزنها في تخطيط وتنفيذ المشاريع في جميع المشاعر المقدسة. ويعتمد القائمون على هذه الدراسات التطبيقية على احدث الوسائل العلمية والأجهزة المتطورة، بالاضافة الى التصوير الجوي الذي يسهم بشكل فعال في حل كثير من مسائل الحج، فضلا عن المساعدة في الحصول على سجل واقعي دقيق للحج. ومن بين أبرز الدراسات التي ينهض بها المركز ما يلي:

* **لحوم الاضاحي**: أولى مركز أبحاث الحج في دراساته موضوع لحوم الهدي والأضاحي أهمية خاصة، نظرا لما قد تشكله هذه الاضاحي، التي يزداد عددها بازدياد عدد الحجاج كل عام، من تهديد للصحة العامة والبيئة في منطقة المشاعر المقدسة ومكة المكرمة. ولهذا قامت حكومة المملكة بتنظيم عملية الذبح والتخلص من المخلفات ببناء عدد من المسالخ الحديثة تتناسب مع اعداد الحيوانات التي تذبح خلال موسم الحج، ومنها مسلخ المعيصم الآلي. وقام المركز من جانبه بإعداد دراسات تتعلق بالجوانب المختلفة للمشكلة سواء من النواحي الاحصائية أو الصحية، بالاضافة الى طرق الافادة المباشرة من لحوم الأضاحي أو عن طريق التصنيع. ويلعب مختبر قسم العلوم البيئية دورا بارزا في مثل هذه الدراسات والأبحاث المعملية. وتأخذ هذه الدراسات المتعلقة بالأضاحي بعين الاعتبار الاستفادة المثلى من الذبائح حفاظا على أموال المسلمين، وإنجاز العمليات المرتبطة بذبح الأضاحي بالمظهر الاسلامي اللائق، والحفاظ على سلامة البيئة وصحة المسلمين والوقاية من الأمراض والأوبئة. وقد توصل المركز عبر التجارب التطبيقية المكثفة الى طرق حفظ اللحوم بتجميدها باستخدام النيتروجين السائل بعد تجويفها وإخراج الاحشاء



لحوم الأضاحي في طريقها الى التجميد ليستفيد منها المسلمون.

وقطع الرأس والأطراف وبقاء الجلد بدون سلخ. وهذه التجربة تعتبر رائدة على مستوى العالم، ويعتبر مصنع التجميد وحدة لا مثيل لها في العالم. ففي عام ١٤٠٧هـ جرى تبريد وتجميد نحو نصف مليون رأس تم توزيعها في العالم. واستكمالا لمشروع تجميد اللحوم أجرى المركز دراسة لتعبئة اللحوم وتغليفها وتعقيمها وقد تكللت هذه الدراسة بالنجاح، حيث يتم نزع العظم ويعبأ اللحم في عبوات أو أكياس من الألمنيوم والبولي ايثيلين، تفرغ من الهواء ويحكم إغلاقها، ثم تعقم اللحوم بالبخار في أفران خاصة، لفترة محدودة. وتبقى هذه اللحوم صالحة للاستهلاك الآدمي لمدة عام على الأقل في حرارة عادية، دون الحاجة الى تبريدها أو وضعها في ثلاجات.

* **العمارة الاسلامية التقليدية**: قام المركز بعدة دراسات تحليلية، الغرض منها فهم العمارة التقليدية بالأماكن المقدسة، واستخراج عناصرها للاستفادة منها في التصاميم العمرانية،

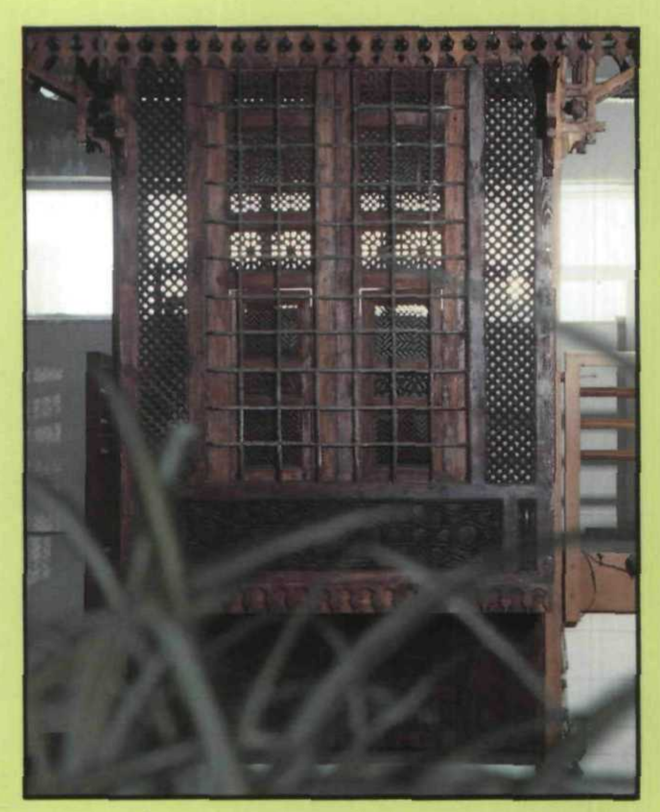


نموذج للبناء الاسلامي يجسده هذا المجسم، الذي أعده مركز أبحاث الحج حرصا منه على المحافظة على روح البناء القديم.

سيد الشهداء. كما شارك المركز في اجتماعات اللجنة التحضيرية لمشروع المخطط الرئيسي التنفيذي للمدينة المنورة، وكذلك التسجيل المعماري للنسيج العمراني بمنطقة الأغوات التي تشمل عدة مبان سكنية ومدرسة وحمام ورباط. وهناك دراسات تفصيلية لمجموعة من البيوت السكنية بمنطقة الأغوات وزقاق الطيار، ومسجد قباء، وتكية محمد علي باشا، ومحراب ومنبر رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

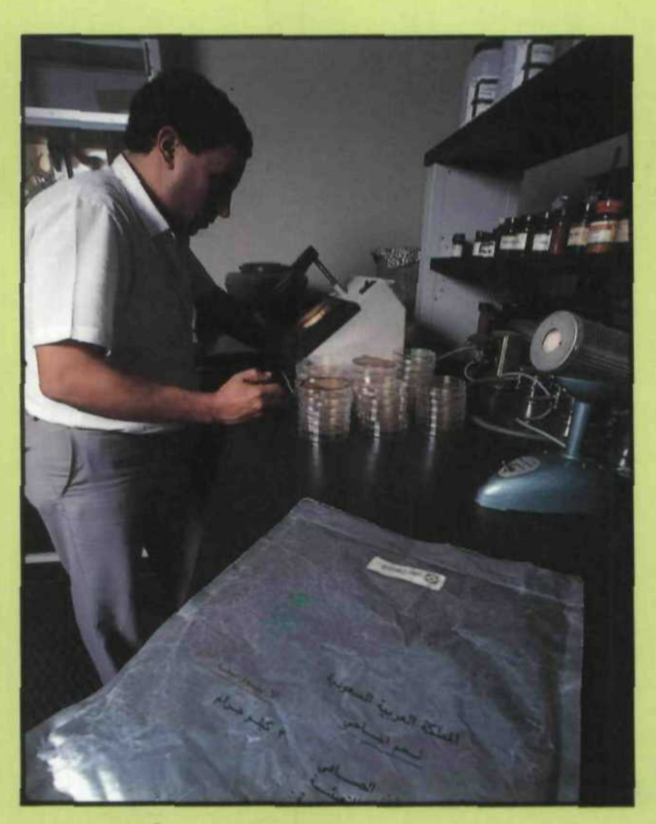
• **دراسات متعلقة بحركة الحجاج**: وقد تضمنت هذه الدراسات جمع المعلومات عن حركة الحجاج والمركبات في مختلف مناطق الحج. وأعد المركز فيلما سينمائيا وثائقيا يوضح الصعوبات التي تواجه حركة الحجاج والأسلوب المقترح لمعالجتها، كما أعد المركز استراتيجية تعتمد على ثلاثة نقاط رئيسية هي: منع السيارات الصغيرة من دخول مناطق الحج، وتوفير سبل النقل الجماعي، وتشجيع الحجاج على المشي في المسافات المعقولة وتزويد مسارات المشاة المزدوجة بأماكن للراحة والصلاة. ويتابع المركز سنويا ما يطرأ على حركة الحجاج من تغييرات من خلال وسائل العد الآلي للمركبات والحصر الأرضي والتصوير الجوي المستمر خلال أيام الحج.

• **استعمال الأرض بمنى**: المعروف ان مكة المكرمة والمشاعر المقدسة، منى وعرفات ومزدلفة، تقع في منطقة محاطة بالجبال. فعلى الشمال الشرقي لمكة المكرمة وبين جبل قبيس الى اليمين وجبل قيقان الى اليسار ينحني الطريق يمينا

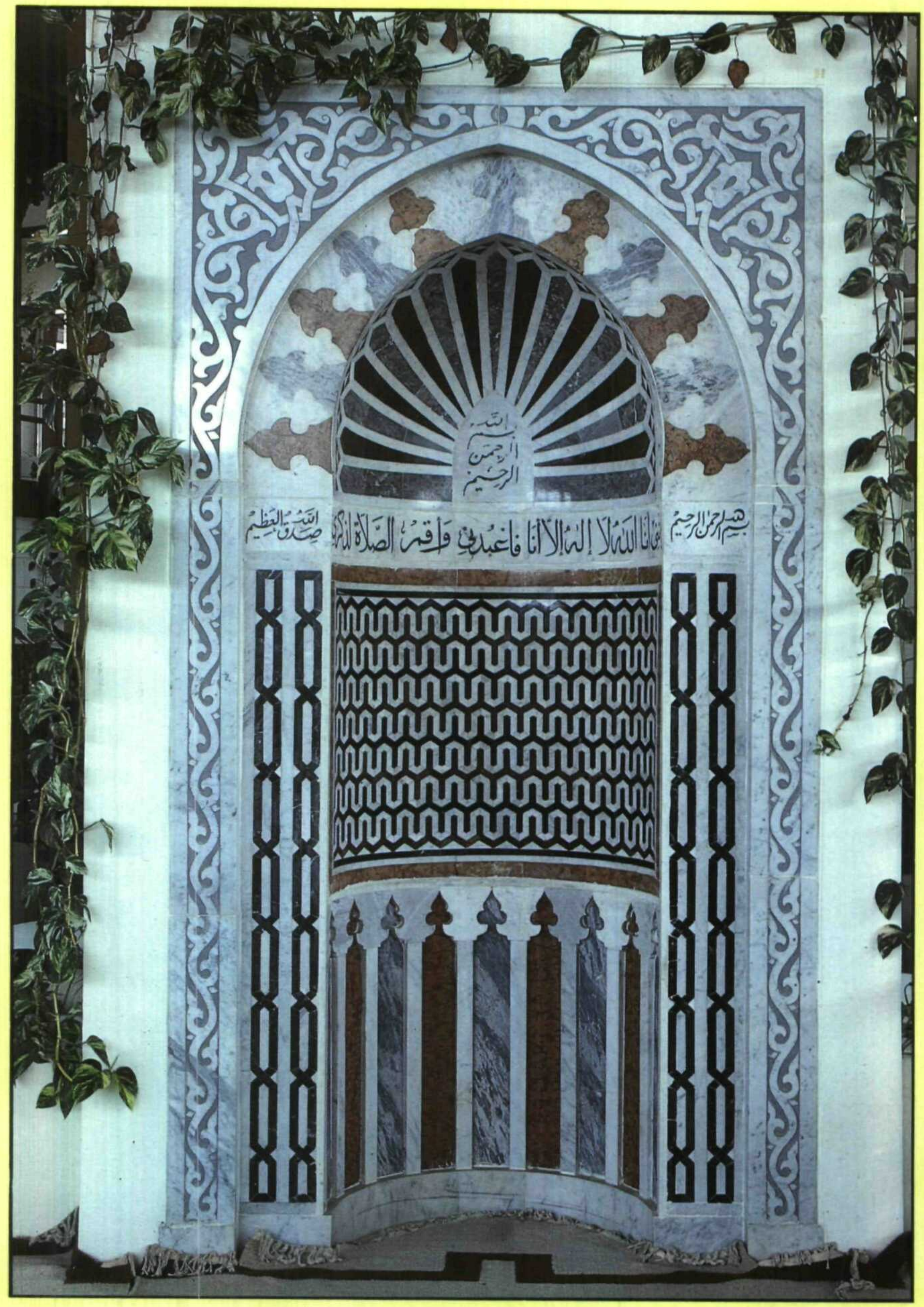


الحفاظ على التراث المعماري لمكة المكرمة والمدينة المنورة جزء أساسي من المهام التي يضطلع بها مركز أبحاث الحج.

ذلك لأنه قد ثبت للمركز أن التراث العمراني لمكة المكرمة تراث حي أصيل متميز وليس بتراث دخيل. ومن هنا تكمن أهمية مكة المكرمة والمشاعر المقدسة من الناحية العمرانية، إذ أن ما يعمل في مكة المكرمة سيكون له تأثير على المدن الأسلامية الأخرى. ومن هذا المنطلق يبحث المركز عن كيفية التخطيط والبناء في منطقة مكة المكرمة والحرم المكي والمدينة المنورة والحرم النبوي الشريف. فقد أجرى المركز العديد من الدراسات للمحافظة على تراث مكة المكرمة في عدة أماكن، وأعد الاقتراحات، مثال ذلك كيفية إعطاء السوق الصغيرة طابعا من الحداثة مع المحافظة على الاصالة والتراث. كما وجد المركز أن هناك بعض المباني التي تحتوي على عناصر معمارية جميلة وفريدة والتي يمكن إجراء بعض التعديلات عليها لكي يستمر استخدامها مع المحافظة على الناحية التراثية لمكة المكرمة. ومن بين هذه العناصر الفريدة الخارجات والرواشن والأجور التي تستعمل للتهوية وتلطيف جو الغرف بالاضافة الى كونها عناصر جمالية تضفي على المنزل البهاء والروعة. أما بالنسبة للمدينة المنورة فقد قام المركز بإعداد عدد من التقارير الفنية بالتعاون مع استشاري تخطيط وتنمية المدينة المنورة، واشتمل بعض تلك التقارير على المخططات التفصيلية للمناطق الحضارية فيها ومنها منطقة المسجد النبوي الشريف، ومنطقة باب المجيدي، ومنطقة زقاق الطيار، ومنطقة قباء، ومنطقة المساجد السبعة، ومنطقة



في مختبر مركز أبحاث الحج يتم إجراء التجارب على تجميد الأضاحي للاستفادة منها لفترة طويلة.



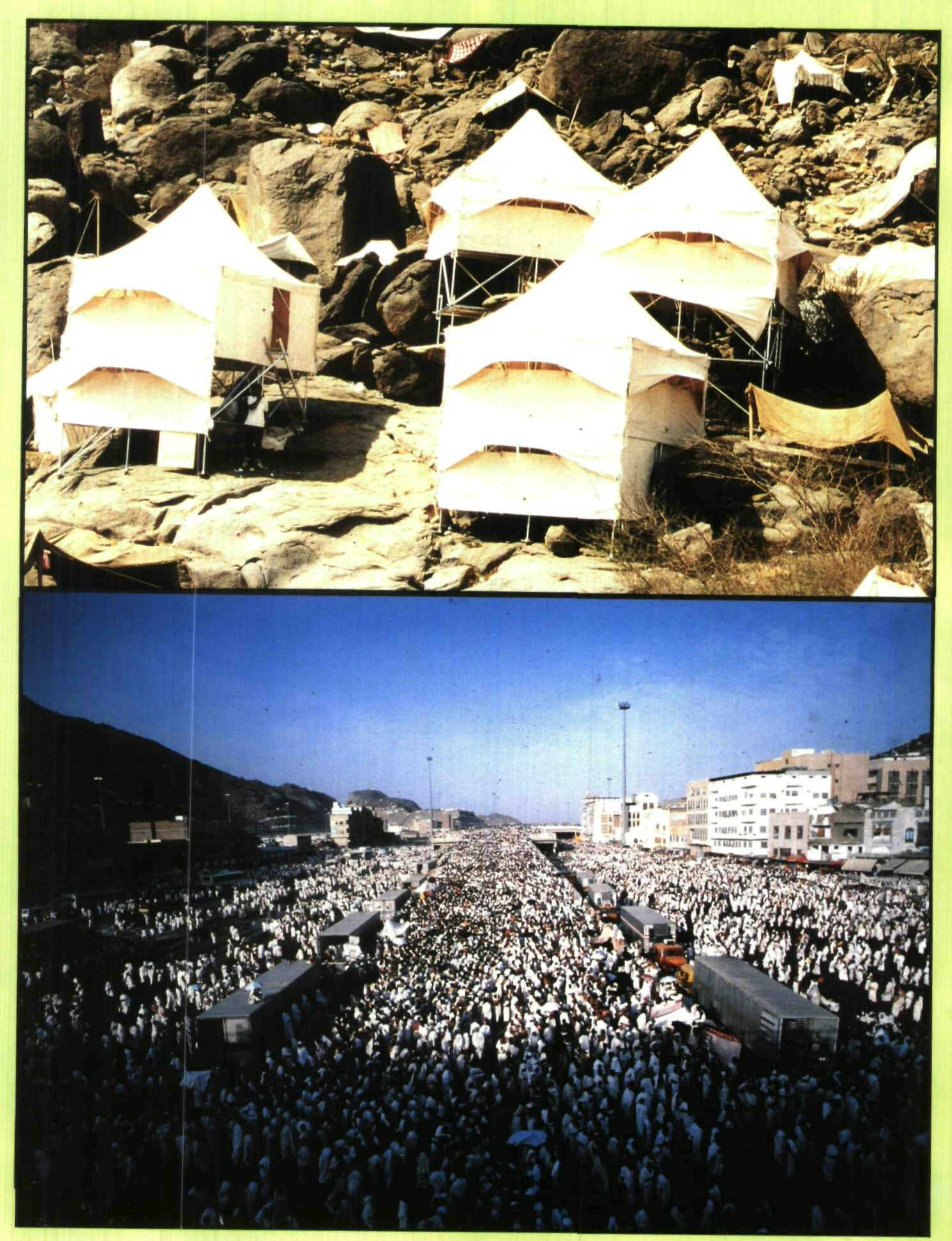
روعة الفن المعماري الاسلامي تتجلى في هذا المحراب، داخل مبنى مركز أبحاث الحج.

حول الجبال ويؤدي الى وادي منى، وهو واد ضيق جدا يمتد من الشرق الى الغرب نحو وادي مزدلفة الذي يطل على سهول عرفات. يظل وادي منى خاليا تقريبا طوال السنة، وما أن تأتي أيام الحج القليلة حتى يعج بالحجاج، وتقوم على الجبال المحيطة به مدينة بل مدن من الخيام لإيواء الحجاج. الجدير بالذكر أن حكومة خادم الحرمين الشريفين قامت بمشاريع تنمية رئيسية لخدمة الحجاج في هذه المنطقة، حيث شيدت شبكة ضخمة من الطرق، وهي تشتمل على عدة جسور، وتقاطعات علوية، وأنفاق شقت في الجبال لتختصر المسافات. كما امتدت الخدمات العامة المكثفة التي اشتملت على امدادات المياه، والهاتف، والمستشفيات، ومكاتب الحجاج التائهين، الى غير ذلك من مرافق لا تقع تحت حصر. وقد اضطلع المركز بدراسات عديدة عن إسكان الحجاج في منى عن طريق تحسين استخدام الأرض، ورفع القدرة الاستيعابية للوادي حتى يمكن ايواء الاعداد المتزايدة من الحجاج. وقد قام المركز في هذا الصدد باعداد مخيم تجريبي على سفح الجبل بمنى يضم نماذج من وسائل الايواء المختلفة التي يمكن إسكان الحجاج فيها، مثل الخيام الجبلية والمنشآت الهيكلية الخفيفة، والهياكل المنطبقة المتعددة الادوار. كما أجرى المركز دراسات حول تطوير الخيام التقليدية وتحسين

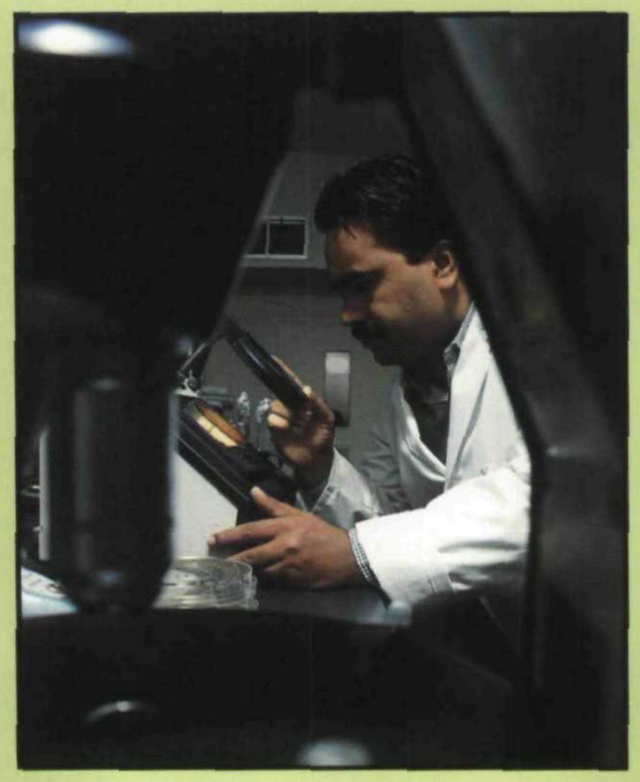


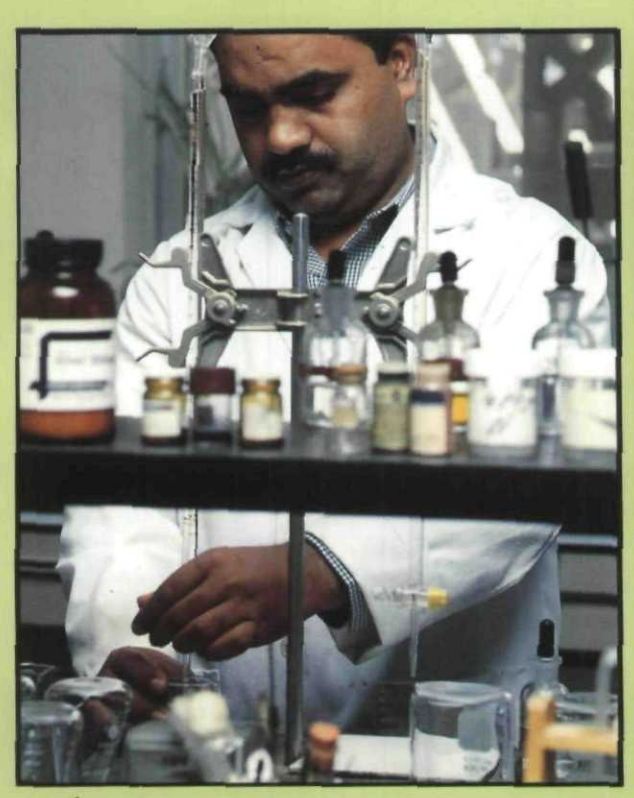
الدكتور عدنان عبدالبديع اليافي يتحدث عن معروضات المركز وأقسامه.

يستخدم المركز الطائرات العمودية في تصوير منطقة المشاعر المقدسة.



خيام الحجيج معلقة على سفوح الجبال المحيطة بوادي منى الذي يعجّ بالحجيج من جميع انحاء العالم الاسلامي.





يقوم الفنيون في مختبر قسم العلوم البيئية التابع لمركز ابحاث الحج باجراء تجارب متنوعة هدفها الحفاظ على سلامة البيئة وصحة حجاج بيت الله الحرام.

مواصفاتها من حيث التحصين ضد الحرائق وتلطيف درجة الحرارة داخلها. ويواصل المركز دراساته لتجهيز أماكن سكن جديدة على سفوح جبال منى تنسجم مع البيئة الجبلية. ولقد وجد المركز أن على جوانب الجبال سفوح كافية ومناسبة تصلح لاستيعاب أعداد كبيرة من الحجاج. ويتضح أنه إذا تحققت التقديرات الحالية لعدد الحجاج بحيث يصل عددهم ما بين ٣,١ مليون الى ٣,٩ مليون خلال السنوات العشرين القادمة، فإن هناك مساحة كافية في السفوح تتسع لاستيعاب هذه الزيادة.

• **الازدحام في منطقة الجمرات:** من الحقائق المسلَّم بها أن الحج هو مناسبة يشتد فيها الزحام بشكل غير عادي، ففي كل ساعة يمر مئات الألوف من الحجاج عبر مشاعر الحج المختلفة. ومن بين هذه المواقع التي يمكن تشبيهها بعنق الزجاجة منطقة الجمرات في وادي منى. ففي اليوم العاشر من شهر ذي الحجة يبدأ الحجاج برمي سبع حصيات بالجمرة الكبرى فقط، وفي اليومين الحادي عشر والثاني عشر من ذي الحجة ترمى سبع حصيات في كل من الجمرات الثلاث على التوالي، وهي الصغرى والوسطى والكبرى. والازدحام عند الجمرات لا يعتبر ظاهرة جديدة، ففي عام ١٢٧١هـ كان عدد الحجاج عشرين ألف حاج فقط، ومع ذلك فقد بلغ الازدحام أشده عند الجمرة الكبرى في اليوم العاشر من ذي الحجة، وقد وصف «السير ريتشارد بيرتون — Sir Richard Burton» في رواية له عن الجمرة الكبرى والازدحام حولها قائلا: إنها ممر وعر لا يزيد عرضه عن ٤٠ قدما، وعلى أحد الجوانب يوجد الحائط الذي يقف في مقابلته العمود، وكانت المساحة الضيقة مكتظة بالحجاج، وجميعهم يتدافعون ويتصارعون كالرجل الغريق للوصول الى أقرب نقطة ممكنة من الجمرة». أما الآن فإن الوضع يختلف كلية عما كان عليه في الماضي. لقد قامت الدولة بتوسعة وادي منى بقطع سفوح الجبال المنخفضة المحيطة به فازدادت أرض الوادي بصورة كبيرة وأصبح تقسيم الشوارع والأراضي أمرا ميسورا. ولزيادة الطاقة الاستيعابية لمنطقة الجمرات فقد تم إنشاء طابق علوي يعرف باسم جسر الجمرات، حتى يتسنى رمي الجمرات من كلا المستويين. وتتكون الجمرات من ثلاثة أعمدة، حول كل منها حوض كبير، يرشق كل منها بالحصى لينزل في الحوض. فعند الوصول الى كل جمرة يتجمهر الحجاج حول الأعمدة، ويحاول كل منهم شق طريقه وسط الزحام الى موقع يمكنه من رمي الحصيات حتى تضرب العمود ومن ثم تسقط في الحوض. وفي الوقت ذاته يقوم غيرهم ممن انتهوا من عملية الرمي بشق طريقهم للخروج من الموقع. والملاحظ في هذه العملية ان كثيرا من الحجاج يجهلون أفضل الطرق للخروج بعد الانتهاء من الرجم، مما يؤدي الى ازدحام بالغ نتيجة لتحرك مئات الألوف من الحجاج في اتجاهات متعاكسة عبر منطقة ضيقة. هذه الحركة في اتجاهين متضادين تمثل المشكلة الكبرى في منطقة الجمرات. وقد أجرى مركز أبحاث الحج دراسات امتدت سنوات عن مشكلة الازدحام في منطقة الجمرات أثناء الرجم، تضمنت جمع المعلومات المتعلقة بحركة الحجاج

بأساليب مختلفة، شملت المقابلات مع أعداد كبيرة من الحجاج، وحصر عدد أفواج الحجيج المتدفقة، والتصوير الجوي في أوقات معينة والتصوير بالفيديو وغيرها، للاستعانة بها في تشخيص مسببات المشكلة، وكذلك إعداد نموذج على الحاسب الآلي لمحاكاة حركة الحجاج أثناء الرجم تبعا لظروف افتراضية متغيرة يتم تغذيتها للحاسب مسبقا، بالاضافة الى إجراء عدة تجارب ميدانية لمحاولة تنظيم وتوجيه الحركة. وقد أسهمت جهود العاملين في المركز في الوصول الى بعض الحلول الكفيلة بمعالجة المشكلة عن طريق إرشاد وتوجيه الحجاج قبل وصولهم الى منى، وتكليف المطوفين بإرشاد مجموعاتهم من الحجاج حول أفضل الأوقات لرمي الجمرات، والتنظيم السليم لعملية الرمي بشكل يحقق إنسيابية وسهولة حركة الحجاج في اتجاه واحد.

- دراسات عن الظروف البيئية في المشاعر المقدسة تضمنت دراسة العوامل المناخية ومياه الشرب والمجاري والمخلفات ونوعية الهواء والضوضاء وغيرها.
- دراسات عن المياه الجوفية بمنطقة الحرم المكي الشريف وكذلك مياه بئر زمزم.
- دراسات حضارية وتاريخية عن مكة المكرمة تضمنت إجراء مقابلات مع المعمرين من الحجاج أو المقيمين بمكة المكرمة، للمساعدة في تسجيل التاريخ الشفاهي للحج ومكة المكرمة، يمكن من خلاله التعرف الى العادات والتقاليد التي كانت سائدة في الماضي.
- دراسات اقتصادية واجتماعية عن الحجاج للتعرف الى خصائصهم المختلفة ومستوياتهم الثقافية وغيرها. وقد تمت بعض هذه الدراسات بالتعاون مع مراكز ابحاث متخصصة في بعض الأقطار الاسلامية الرئيسية التي تأتي منها أعداد كبيرة من الحجاج كل عام.
- دراسات عن توعية الحجاج لتحديد أنسب برامج التوعية اللازمة لهم، والطرق الملائمة للتوعية للمستويات الثقافية المختلفة من الحجاج.

ويصدر المركز كل عام صورة جوية ارشادية لمنطقة منى للاستفادة منها في إرشاد الحجاج التائهين، وفي تحديد مواقع مخيمات المطوفين والجهات والهيئات والمؤسسات وغيرها. فالمعروف أن معالم منطقة منى تتغير من عام الى آخر، إذ أن توزيع المخيمات والخدمات المختلفة يبدأ مباشرة قبل موسم الحج من كل عام، مما يجعل استخدام الخرائط المساحية العادية أو إعداد خرائط تقليدية في هذه الفترة الزمنية القصيرة أمرا صعبا. لهذا كان لا بد من ايجاد وسيلة أخرى غير الخرائط التقليدية يمكن بواسطتها تسجيل الواقع الفعلي لمنطقة منى، حتى يمكن استعمالها في إرشاد الحجيج، وغيرهم من جهات أمنية وخدمات مختلفة. وقد توصل مركز أبحاث الحج الى وسيلة جديدة لتحقيق هذا الهدف عن طريق إعداد خريطة خاصة تجمع ما بين الصورة الجوية والخريطة الإرشادية أطلق عليها اسم «الصورة الارشادية السنوية لمنى»، هي عبارة عن الصورة الجوية لمنطقة منى قبل الحج بأيام قليلة، حيث تظهر عليها مختلف الاستعمالات في مواقعها الطبيعية الفعلية. وهذه الصورة الإرشادية تمثل جهدا كبيرا وعملا متشابكا تشترك في تنفيذه سنويا جهات عديدة بامكاناتها المختلفة، حتى يمكن إخراجها بالجودة والدقة المطلوبتين وفي الزمن القصير المتاح.

وبعد فإن ما ذكرناه عن نشاطات ودراسات مركز أبحاث الحج هو غيض من فيض، والمركز يواصل جهوده المثمرة كل عام ليحقق الأهداف النبيلة التي تنشدها حكومة خادم الحرمين الشريفين □

تصوير: علي عبدالله المبارك/ ارامكو



بعض المعروضات والمجسمات في مركز أبحاث الحج التي تعكس نشاطات المركز المختلفة.

محكمة الضمير

للراحل: د. عزت شندي موسى / القاهرة

رقيب تشبث في أضلعي ... مشوق لينهل من أدمعي
يشكل لي هيئة للقضاء ... ويجلس في مقعد المدعي
ويقضي بما شاء شأن الظلوم ... وإن جئت بالدمع لم يسمع
يكبلني إن أردت الفكاك ... ويحكم قيدي على الأذرعِ

* * *

يغالي فيحرم عيني المنام ... وإن هب للَّوم لم يقلع
يَعدّ من الاثم نظرة عين ... ويحسب إيماءة الاصبعِ
ويحصي عليّ خوالج نفسي ... ويصغي لنجواي في مخدعي
ويردعني عن ورود المباح ... وغيريَ في الغيِّ لم يردعِ
ويمنعني عن مدى الشبهات ... وغيري عاش لم يُمنَعِ
ويبعدني إن قربت لسوء ... ويوقظ عقلي ان أشرعِ
وينفذ بين حنايا الضلوع ... ويسبق كفِّي الى مبضعي
يجرعني المرَّ في كل يوم ... وان قدّم المر لي أجرعِ
إذا قمت قام عليَّ رقيبا ... وإن نمت أقلق لي مضجعي

* * *

يروم من العين غمض الجفون ... ويبغي التبلد في مسمعي
ويكبت في النفس حب الظهور ... ويرجو التزهد في مطمعي
ولم أرق يوما الى عصمة ... ولم أعرف الزهد أو أدعِ
ويسألني فوق ما استطيع ... كأنيَ فذّ الحجى ألمعي
فإن قلت ينقض حلو مقالي ... وان جلت ثار على موضعي
ولم يرض يوما بأمر أتيت ... ولم يعف عني أو يشفعِ
كأنيَ متهم لا يجار ... ولم آت جرما ولم أشنعِ

* * *

ضميري ترفق فأني بريء ... بغير الفضائل لم أولعِ
وهوِّن عليَّ مضيق الخناق ... وخفِّف قيودي ولا توجعِ
فإن لم تقف عند حدٍّ يطاق ... هجرت حماك ولم أرجعِ



نموذج للقصة المثل في



بقلم: الأستاذ محمد قطب عبد العال/مكة المكرمة

ساق القرآن الكريم قصصه للعبرة والعظة، ولابراز جوهر الأديان ووحدة الرسالات السماوية. والقصة في القرآن من الوسائل التعبيرية الفعالة لابلاغ الدعوة، وتوضيح اطوارها وكشف الماضي السحيق منها، كما أن فيها ايناسا للرسول ﷺ ومؤازرة له.

والقصص شعبة جليلة من شعب القرآن الكريم، إختصه الله منه بنصيب كبير، لمكانه من الدعوة وحسن بلائه في المعاونة على ادائها.. وهو الزاد الالهي الذي يمد الله به رسوله في رحلته البعيدة المدى.. الثقيلة الأعباء[1].. والقصة تحفل بالاسوة، وتعمل في النفس، وتبعث على الطمأنينة والرجاء. ولقد وردت على أنواع، يخاطب كل نوع جانبا من جوانب النفس، حيث يقرن العمل بالجزاء فيسرى الهدف الديني سريانا حيا، فيتمكن المغزى من القلب ويختلط بمشاعر الوجدان.

والقصة المثل نوع من قصص القرآن الكريم، يغلب عليها اتجاه موضوعاتها الى السلوك الانساني إزاء رسالة التوحيد، وحث النظر الى التأمل في ملكوت الله ومخلوقاته. فهي إذن «قصص وقعت وأخبار حدثت، وهي صدق وحق»[2] والقصة القرآنية تبنى احداثها على الصدق، مبتعدة عن الوهم والمبالغة.. ويكون الصدق واقعيا عندما يتصل بالجانب التاريخي على حين يصبح موضوعيا في القصة المثل، حيث يكمن الصدق الموضوعي والفني وتشخيص المعاني المجردة والتوجيهات التربوية والدينية في شكل تطبيقي بأشخاص غير معينين في الواقع التاريخي ولكن وجود أمثالهم في واقع الحياة ممكن وذلك من حيث « مواقفهم وتصرفاتهم التي تمليها نوازع نفسية راسبة في شعور الانسان لأنها من طباعه وفي غرائزه»[3].

وتعتبر قصة «أصحاب القرية» نموذجا للقصة المثل في القرآن الكريم. قال تعالى **﴿واضرب لهم مثلا أصحاب القرية اذ جاءها المرسلون. اذ ارسلنا اليهم اثنين فكذبوهما، فعززنا بثالث، فقالوا انا اليكم مرسلون. قالوا ما انتم الا بشر مثلنا وما انزل الرحمن من شيء ان انتم الا تكذبون، قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون. وما علينا إلا البلاغ المبين. قالوا انا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم. قالوا طائركم معكم، ائن ذكرتم بل انتم قوم مسرفون. وجاء من اقصى المدينة رجل يسعى، قال يا قوم اتبعوا المرسلين. اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون. وما لي لا أعبد الذي فطرني واليه ترجعون. أأتخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون. اني اذا لفي ضلال مبين. اني آمنت بربكم فاسمعون. قيل ادخل الجنة، قال يا ليت قومي يعلمون. بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾**[4].

والقرية مورد المثل هي قرية «انطاكية» كما ورد في كتب المفسرين، وكان أهلها يعبدون الأوثان مما جعلهم يتشاءمون من دعوة الرسل الى التوحيد الخالص معترضين عليهم ببشريتهم،وهو اعتراض متكرر فيه سذاجة وقصور إدراك. فالرسالة منهج إلهي تعيشه البشرية، وحياة الرسل هي النموذج الواقعي للحياة. (النموذج الذي يدعو قومه الى الاقتداء به. وهم بشر. فلا بد أن يكون رسولهم من البشر ليحقق نموذجا من الحياة يملكون هم أن يقلدوه)ولقد واجه رسول الله ﷺ ذلك الاعتراض وذلك التكذيب نفسه. ومن ثم جاء التوجيه الى الرسول ليضرب لقومه هذه القصة لعلهم يتعظون. فالقرية كافرة جاحدة بنعم الله.. جاءها رسولان يحملان الدعوة الى التوحيد. فووجها بالتكذيب، فآزرهم ثالث، ودار الحوار ليكشف الصراع بين الحق والضلال.

* إننا رسل ربنا اليكم لنخرجكم من الظلمات الى النور.
— كيف وانتم بشر مثلنا، لا تفضلوننا في شيء. انكم تكذبون.

ويخرج الخطاب من الخبر المرسل الى تأكيد المعنى أمام الانكار والعناد.

* الله يعلم أننا رسله اليكم، وما علينا إلا البلاغ.
— إننا نتشاءم منكم، ونتوقع الشر، فإن لم تنتهوا عذبناكم.

ويبرز الحوار ان التشاؤم خرافة جاهلية. والرسل يوضحون لأهل القرية خرافة هذه الدعوة، فالخير والشر لا يأتيهم من خارج أنفسهم بل هو مصاحب لهم.

* إنكم مسرفون في الضلال فأنتم تتشاءمون من دعوة التوحيد.

ويتبدى الموقف على الحقيقة. فالقوم يعاندون

---

(١) مع القرآن الكريم. دراسة مستلهمة، ص/١٩ علي النجدي ناصف.
(٢) القرآن الكريم.. كتاب احكمت آياته، ص/١٦٥، أحمد محمد جمال.
(٣) سيكولوجية القصة في القرآن، ص/٢٤٧، التهامي نفرة.

(٤) سورة يس، ١٣—٢٧.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب، مجلد/٥، ص/٢٩٦١، الشروق.

ويستكبرون، ومن ثم يرفضون الدعوة. ويظهر الحوار وسيلة الدعوة عبر الحكمة والموعظة الحسنة، ويكشف طبائع الرسل النيرة وطبائع أهل القرية المظلمة.

وينتقل السياق القصصي الى موقف مؤازر للرسل، انه موقف المؤمن الذي يتضاد مع موقف أهل القرية. ويغلب على الموقف السرد القصصي ليضيف للقصة حدثا جديدا يدفع بالصراع الدائر الى نهايته.

فالرجل يستجيب لدعوة الحق استجابة الفطرة السليمة. ولقد كان رجلا مأزوما في نفسه أو في أهل بيته(٦). ولقد واجههم قائلا:

— يا قوم إني ناصح لكم، فآمنوا بما جاء به الرسل واتبعوهم.

ويلمح الرجل في العيون دهشة تحمل إنكارا، ونظرة تعرض به، فيسرع قائلا:

— إنهم صادقون في دعوتهم لا يطلبون أجرا ولا مغنما.. إنكم معهم تربحون خيري الدنيا والآخرة.

وكان الرجل فقيرا في قومه، وكانت نظرة القوم الساخرة المباغتة فيها إدانة للرجل.. وكأن لسان القوم يقول: ما الذي حملك على ذلك؟ أهو فقرك؟ أهي حاجة تحتاجها؟ أم أنهم أعطوك فتملكوك بما أعطوا؟ والسياق يدعو الى هذا.. فيسارع الرجل المؤمن الى القول وهو يحسنه مؤملا ألا ينزل عليهم منزل سوء، فيستاءون منه، وتضيع الحكمة من الحوار.

— ما الذي يمنعني من أن أعبد خالقي الذي أبدع صورتي، إنه الله الواحد الذي اليه مرجعكم يوم القيامة. وما أقبح ما تفعلون! كيف تتخذون أصناما آلهة لا تضر ولا تنفع، ولا تنقذ أو تشفع من عذاب الله.

ويسرع الحوار حادا حاسما يترقرق بالايمان، ويشي بعقيدة مؤمنة موحدة.

— إنني لو فعلت ذلك، لكنت من الضالين، وحاشاي أن أفعل.. وانني أعلن ايماني، ويا أيها الرسل، انني أؤمن بدعوتكم، أؤمن بإله واحد لا شريك له، فاسمعوا، وأشهدوا.

وينتقل السياق السردي الى موقف النهاية، حيث لم يمهل القوم المؤمن.. فقتلوه، ويسدل الستار على الدنيا ليفتح على العالم الآخر، فنرى ما ادخر للمؤمن القوي الايمان، الشهيد في الحق، وهو الفوز بالجنة. والمؤمن وهو في هذا النعيم يتمنى لو أن قومه يرون النعيم الذي يحفل فيه، ليتعرفوا الى الحق ويؤمنوا به.

(٦) قيل انه حبيب النجار، وأنه كان مجذوما فبريء من مرض فآمن. وقيل أن إبنه كان مريضا فعوفي فآمن. وقيل أنه كان نحاتا، وقيل أنه كان حائكا. وعن الرسول،صلى الله عليه وسلم،انه قال **(سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين: علي بن أبي طالب، وصاحب ياسين، ومؤمن آل فرعون)** والقرآن الكريم لم يتعرض لذلك كله وفقا لمنهجه في القصة لإيراد العبرة والعظة. أنظر: الكشاف ج/٣ ص/٢٨٣، الظلال مجلد/٥ ص/٢٩٦١، صفوة التفاسير ج/٣ ص/١١.

ذلك جزاء الايمان، أما الطغيان فلقد وجه بصيحة واحدة، أخمدت أنفاس الطغاة فما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة، صاح بهم جبريل، فإذا هم ميتون لا حراك بهم. «قال المفسرون وفي الآية استحقار لاهلاكهم، فانهم أذل واهون على الله من أن يرسل الملائكة لاهلاكهم»(٧).

وقصة أصحاب القرية، قصة تاريخية جاءت على هيئة المثل، لاحتمال وقوعها ومن ثم برزت فيها العظة والعبرة التي تتجدد بتجدد مناشط الانسان في نظرته الى الكون والحياة، وابتعاده أو إقترابه، وإلتصاقه بالعقيدة.

وفي القصة ضرب الرجل المؤمن مثالا فريدا في التضحية بالنفس، والشهادة في سبيل المعتقد الديني، مثله في ذلك مثل أصحاب الأخدود. وإذا كان الموت لا بد منه كما يقول ابن تيمية في «الجواب الصحيح» «فالموت الذي تحصل به سعادة الدنيا والآخرة أكمل»(٨). وأوجب وأدخل الى الايمان والفوز بالجنة. ومضرب القصة المثل موجه الى مشركي مكة الذين كذبوا الرسول، وفيها إنذار بسوء العاقبة، كما أنها تتضمن طمأنة القلوب المؤمنة ومؤازرة لهم.

ومن محاسن التنزيل الحكيم وبلاغته المعجزة الأيجاز في ايراد القصة والاشارة الى روحها الكامن فيها، وسرها الذي تتضمنه. فالقصد من القصص التذكير والاعتبار ولهذا لم يذكر في القصة إسم البلدة ولا إسم الشخص الذي دعاهم الى التوحيد، ولا أسماء الرسل الكرام، لأن ذلك كله ليس مقصودا من السرد. فضلا عن أنه لا يتلاءم مع منهج القرآن في السرد القصصي «وعدم إفصاح القرآن عنها دليل على أن التحديد لا يزيد شيئا في دلالة القصة وايحائها ومن ثم مضى الى صميم العبرة ولبابها»(٩).

والتعبير القرآني يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني فيما يعرضه من الصور والمشاهد القصصية، ذلك أن قصة «أصحاب القرية» جمعت بين لونين فنيين مؤثرين في الوجدان، السرد وجاء عرضا متمثلا في حضور الرسل ومجيء الرجل المؤمن مع فجوات لاحظناها تثير الذهن وتستحوذ على مخيلة المتلقي، والحوار الذي يعطي حيوية وتأثيرا يشدان السامع الى المتابعة ثم الجدل والمحاورة. وقد كشف الحوار، علاوة على الهدف الديني، جوانب الشخصيات المتحاورة، شخصية الداعي والمؤمن والكافر الجاحد بحيث تتبدى لنا الشخصية معبرة عن نفسها وعن موقفها «فالفن والدين صنوان في أعماق النفس وقرارة الحس، وإدراك الجمال الفني دليل استعداد لتلقي التأثير الديني»(١٠) □

(٧) صفوة التفاسير، ج/٣، ص/١١، محمد علي الصابوني.

(٨) سيكولوجية القصة/١٥٨.

(٩) في ظلال القرآن مجلد/٥، ص/٢٩٦١.

(١٠) التصوير الفني، سيد قطب ص/١٤٣ — ١٤٤.

مدينة الفتح الإسلامية في سيكري

(٣)

بقلم: د. سعد حذيفة/جامعة الملك سعود



السلطان اكبر يستقبل في عاصمة اكرا نبأ مولد ابنه سالم، الذي من أجله بنى مدينة الفتح.

استعرضنا في عددين سابقين من هذه المجلة موضوعين، الأول كان عبارة عن نبذة تاريخية عن السلاطين المغول المسلمين، الذين جاءوا من أراضي ما وراء النهر، واستطاعوا تأسيس دولة لهم في «شبه قارة الهند والسند» وبنوا حضارة راقية تجسدت في أبدع صورها في «قصر التارج/ تاج محل» وأشادوا لهم عشرات المدن والحواضر الاسلامية. وما «مدينة الفتح» إلا واحدة من هاتيك المعالم التاريخية العظيمة.

أما الموضوع الثاني، فقد كان عن «قرية سيكري» وعن الخلفية الاجتماعية لتلك القرية عشية اختيارها كعاصمة للسلطان جلال الدين أكبر.

وفي هذه المقالة سوف نتناول باختصار الأسباب الكامنة وراء اختيار «قرية سيكري» لأن تكون المكان المناسب لاشادة عاصمة جديدة للسلطان المغولي المسلم، أكبر؛ وكيف لعبت ظروف هذا السلطان الاجتماعية، والعائلية بصورة خاصة، الدور الأكبر في إقامة تلك العاصمة العريقة. ودور الزاهد، سالم جستي، في ذلك كله.

أسباب بناء "مدينة الفتح في قرية سيكري"

جاء السلطان الثالث، في سلسلة ملوك المغول في «شبه قارة الهند والسند» جلال الدين أكبر بن ناصر الدين همايون، الى سدة السلطنة المغولية هناك، في عام ٩٦٣هـ (١٥٥٦م)، حيث دام حكمه فيها أكثر من نصف قرن من الزمان (٩٦٣ ـ ١٠١٤هـ/ ١٥٥٦ ـ ١٦٠٥م)[١]. وكانت الغاية التي يتمناها «أكبر» هي أن يكون له ابن من صلبه، يعيش ليتولى عرش سلطنة المغول من بعده. لذلك نجد هذا الأمر يشغل ذهنه، ربما أكثر من أي شيء آخر من شؤون دولته. وحول هذا الموضوع يحدثنا السلطان جهانكير، في مذكراته قائلا: «...، لم يكن يعيش لوالدي طفل، حتى بلغ من العمر ثمانية وعشرين عاما، وكان دائم الدعاء الى الله بأن يرزقه بولد، يعيش له. وكان يسأل الزهاد، والنساك، بأن يدعو بذلك لصلاحهم، لعل الله يستجيب دعاءهم...»[٢]. أما المؤرخ الشيخ البدعوني، فإنه يضيف الى ذلك قائلا بأن السلطان أكبر قد ولد له عدة أطفال، ولكنهم كانوا جميعا يموتون في سن الطفولة.[٣].

ونظرا لهذه الظروف العائلية والاجتماعية، والتي كانت بارادة الله سبحانه، والتي أخذ أكبر يعاني منها، فقد اشتد تعلقه بالعلماء، والزهاد، والمتصوفة، فأضحوا يلعبون دورا هاما، وبارزا في حياة هذا السلطان المغولي خاصة، بل وفي حياة الناس عامة. ولقد كان هؤلاء يقومون بزيارة قبور واضرحة من قد مات منهم، فيتبركون بها، ويدعون الله عندها، بل ومنهم من يذهب به جهله بالعقيدة الاسلامية والانحراف عنها بالدعاء الى صاحب هذا الضريح أو ذاك القبر مستجيرا بالله متصورا أنه سيحل له ما يعاني من مشاكل، أو مرض، ألمَّ به أو بأحد من أفراد أسرته. لم يكن هذا النوع من العمل مقتصرا على العامة من الناس يومذاك، بل كان يقوم به أكابر القوم، وعِلْية الناس، وعلى قمة الهرم الاجتماعي الملوك والسلاطين المسلمون أنفسهم. لذلك، فلا غرابة أن نجد السلطان أكبر واحدا من أولئك الناس حيث كان يشد الرحال الى أماكن بعيدة لزيارة أضرحة وقبور من يسمون بـ «الأولياء»، تيمنا بهم، خاصة اذا كان مقبلا على عمل هام، كبداية لمعركة، او استهلالة لفتح بلد، أو قيادة جيش ضد ثائر، هنا أو هناك، داخل مملكته؛ بل كان يقوم بهذا النوع من الزيارة كلما ألمَّ به وجع، أو وقع به هاجس أقلقه، أو أحاطت به محنة. لذلك نجد حياة السلطان أكبر مليئة بهذا النوع من النشاط العقدي المنحرف. ومما يؤسف له أن هذه الأعمال التي كان يقوم بها السلطان قد أوجدت من استحسنها من مؤرخي حياته. وقد سجل الشيخ البدعوني، والمؤرخ أبو الفضل، كل ذلك بالتفصيل في مصنفاتهما عن تاريخ السلطان جلال الدين أكبر.

ولنا أن نتصور أنه اذا كانت هذه تصرفات السلطان أكبر تجاه أضرحة وقبور الزهاد، مع ما يحف به من علماء وزهاد ومتصوفة. فما هو يا ترى تصور المرء منا عن كيفية تعامل ذاك السلطان مع من كان حيا من هذه الفئة من الناس؟ يحدثنا إبنه جهانكير، الذي كان سببا في بناء «مدينة الفتح» حيث يقول: «...، كان والدي طيعا مستسلما لأوامر وارشادات الزهاد...»[٤].

ويبدو لنا أن السلطان أكبر شعر بأنه لم يستفد من زياراته المتعددة لهاتيك القبور والأضرحة، لحل مشكلته التي كان يعاني منها، حول ظاهرة وفاة أبنائه، وهم ما يزالون في سن الطفولة. فعلى سبيل المثال، ولد له في عام ٩٧١هـ (١٥٦٤م) توأمان، وماتا بعد أسابيع قليلة من ولادتهما. وقد أرشد أكبر الى الشيخ الزاهد سالم جستي، في «قرية سيكري». وهذه المسألة واضحة مما يورده ابنه جهانكير في مذكراته[٥]. وأبو الفضل في تأريخه قائلا بأن السلطان أكبر قد أخبر بالشيخ سالم عن طريق مشايخ وعلماء بلاطه[٦]. وقد عرج السلطان أكبر على الشيخ سالم في «قرية سيكري» أثناء عودته

(١) انظر، أبو الفضل، «اكبر نامه» ج/٢ ص/٥ وبعد؛ البدعوني، «منتخب التواريخ» ج/٢ ص/١ وبعدها، ويعتبر هذان المؤرخان من أهم من كتب في «تاريخ السلاطين المسلمين المغول في بلاد الهند والسند» وخاصة أيام السلطان جلال الدين أكبر، فقد كانا معاصرين له، ومن كبار موظفي دولته.

(٢) «مذكرات جهانكير» ج/١ ص/١.

(٣) البدعوني، «منتخب التواريخ» ج/٢ ص/١١٢.

(٤) «مذكرات جهانكير» ج/٢ ص/١.

(٥) نفس المصدر السابق والصفحة.

(٦) أبو الفضل، «أكبر نامه» ج/٢ ص/٥٠٣.

من احدى حملاته العسكرية في الجهة الغربية من «شبه قارة الهند والسند». ويذكر بأنه انكب يلثم يدي الشيخ، وشكى اليه حالته الاجتماعية لعله يتوسل الى الله بدعائه الصالح، أن يمنحه ولدا صالحا من صلبه، يعيش له، ليرث العرش من بعده. يحدثنا جهانكير، حول تلك المقابلة، فيذكر بأن الشيخ «خواجه معين الدين جستي» طلب من والده بأن يسير على قدميه، على ما يبدو لنا تذللا وخشية لله سبحانه، من عاصمة الدولة «اكرا» الى حيث كان يعيش الشيخ، في كوخه ذاك على رأس تل «قرية سيكري» حتى يمكنه ان يستجيب لطلبه، ولعل الله يمنحه بغيته. وهنا استجاب أكبر، فسار ماشيا من «اكرا» الى حيث كان يسكن الشيخ، على الرغم من قسوة الجو وشدة برودته، خلال شتاء عام ٩٧٦هـ (١٥٦٨ — ١٥٦٩م). ويحدثنا أيضا جهانكير بجزء من الحديث الذي جرى بين والده والشيخ سالم، بعد أن نفذ الأول مطلب الشيخ، فيقول: «...، وأثناء مقابلته له، سأله والدي بتلهف، وشوق مذهلين (كم ولد سيولد لي؟) فقال الشيخ: «إن الله هو المعطي؛ فهو الذي يمنح دون سؤال، وسيهبك، إن شاء الله، ثلاثة أبناء»(٧). ثم يضيف جهانكير بأن والده قطع على نفسه وعدا بأن أول مولود يولد له سيسلمه الى الشيخ سالم ليقوم بتربيته، ورعاية شؤونه حتى يكبر، فقبل الشيخ القيام بذلك الواجب، قائلا بأنه سيطلق عليه اسمه هو، اي «سالم»(٨). ومع ذلك فنجد أن أبا الفضل يدعي بأن السلطان أكبر لم ينفذ أوامر الشيخ تلك الا ليسكت أفواه التافهين. وان ذلك السلطان لم يكن يتمسك بأقوال اولئك المشايخ من الزهاد. ومع ذلك فقد اختار موقع «سيكري» لتكون مقرا جديدا لـ «دار الخلافة» تيمنا بالشيخ(٩).

كان السلطان أكبر متزوجا من امرأة هندوسية، من مدينة «امبر — Amber»، في ولاية اجمير. وعندما تأكد حملها نقلها لتعيش في منزل شيده الملك الى جانب منزل الشيخ سالم ولتضع حملها، بناء على اقتراح الشيخ نفسه. وتذكر الروايات أنها أنجبت ولدا فأطلق الشيخ عليه اسمه «سالم» كما أطلق على أمه «مريم الزمان». وقد تولى الشيخ الإشراف على تربية وتعليم الأمير الصغير سالم. ويحدثنا جهانكير، وهو هذا الأمير سالم نفسه بعد أن كبر، قائلا، بأنه عندما قرب وقت ولادته انتقلت امه من «مدينة اكرا» الى «سيكري»، حيث كان يعيش الشيخ، حيث ولدت في يوم الأربعاء ١٧ ربيع الأول عام ٩٧٧هـ (٣١ اغسطس عام ١٥٦٩م)...، وبعد ميلادي سموني السلطان سالم، ولكنني لم اسمع والدي، قط، يناديني بـ محمد سالم، أو بـ سلطان سالم، سواء في لحظات أفراحه، أو في ساعات اتراحه؛ ولكنه

(٧) «مذكرات جهانكير» ج/١ ص/١.
(٨) نفس المصدر السابق، والصفحة.
(٩) أبو الفضل «اكبر نامه» ج/٢ ص/ ٥٠٣ — ٥٠٥.



السلطان اكبر في رحلته مشيا على الأقدام متوجها الى اجمير وفاء بوعده الذي قطعه على نفسه بالمشي على قدميه من «اكرا» الى اجمير ان هو رزق بمولود.

كان دائما يناديني: بابا الشيخ...»(١٠). وقد أشرنا سابقا الى أن هذا الأمير قد غيَّر اسمه، بعد أن كبر، وتولى سلطنة المغول، بعد والده، الى نور الدين جهانكير(١١).

كاد السلطان أكبر أن يجن من الفرح، عندما سمع بأن الله قد رزقه مولودا ذكرا، فأطلق سراح السجناء؛ وأقام الاحتفالات لعدة أيام؛ وجاءه الشعراء، من كل حدب وصوب، ينشدونه قصائدهم، وليباركوا له تلك المناسبة السعيدة. وقد أشار الى ذلك كله المؤرخ الشيخ البدعوني، في مصنفه «منتخب التواريخ»(١٢). بالاضافة الى ذلك نجد أكبر يمعن في التعبير عن فرحته تلك، وخاصة ما يتعلق بمجتمع «قرية سيكري» وشيخها سالم جستي، ولا أقل من أن يكرّم هذه القرية بأن يبني له مدينة على قمة ذلك التل

(١٠) «مذكرات جهانكير» ج/١ ص/٢.
(١١) المصدر السابق، ص/٣.
(١٢) البدعوني «منتخب التواريخ» ج/٢ ص/١٢٤ وبعدها.

الكبير في «قرية سيكري»، لينتقل اليها، وليجعل منها مقرا لدولته. وهنا يذكر أبو الفضل، حول هذا المعنى، ما نصه «...، وليعبر عن رغبته الصادقة، وحبه العميق، فقد قرر أن يظهر للعالم الخارجي روعة هذه البقعة «سيكري» التي تكمن فيها روحانية دينية عظيمة...».

الأمر الثالث، الذي قام به السلطان «اكبر»، للتعبير عن فرحته بذلك المولود، أنه أشاد للشيخ سالم ضريحا كبيرا، في داخل المسجد الجامع لـ «مدينة الفتح»، احياء لذكراه، وكرمز تقدير له، وعرفانا بفضله، بعد موته عام٩٧٩هـ (١٥٧٢م)[١٤]. ويكرم أسرة الشيخ سالم بدفن موتاهم معه حيث كان للذكور مكان لهم وللاناث مكان لهن.

وعند زيارتي، لتلك المدينة، وجدت أن أفراد أسرة الشيخ سالم جستي ما يزالون يعيشون، جيلا بعد جيل، ويحظون بالتقدير والاحترام بما يفوق الوصف على أيدي الأهالي بهاتيك الديار، ربما على نفس المستوى الذي كان يحظى به الشيخ سالم نفسه أيام السلطان اكبر.

الأمر الرابع أن «اكبر» قد ربط اسم تلك القرية، بالشيخ سالم، وقد سماها السلطان اكبر «مدينة الفتح العامر» «فتح آباد»، وقد حُرِّفت الى «مدينة الفتح في سيكري» «فتح بورسيكري» مع مرور الزمن انتشر ذلك بين العامة، فأجازه السلطان. وقد سميت بهذا الاسم ليخلد ذكرى فتح اقليم الكجرات، الذي يعتبر من أهم أقاليم دولة السلاطين المغول في هاتيك البقاع.

وحول هذه المدينة وتسميتها بهذا الاسم، يحدثنا السلطان جهانكير قائلا: «...، ان هذه القرية سميت بمدينة الفتح نسبة الى فتح اقليم الكجرات...»[١٥]. حيث فتح أكبر هذا الاقليم، الواقع الى الغرب من «شبه قارة الهند والسند» وعاصمة «مدينة احمد آباد» في النصف الثاني من عام ٩٨٠هـ (١٥٧٢م)[١٦].

الأمر الخامس، الذي قام به «اكبر» للتعبير عن فرحته بمولوده الجديد، انه شد الرحال، كما يحدثنا المؤرخ عبدالقادر البدعوني، لزيارة قبور وأضرحة من يسميهم مؤرخو تلك الديار، سابقون ولاحقون، بـ «الأولياء المقدسون — The Holy Men»؛ حتى يعبر عن شكره وتقديره بأن الله رزقه بذاك الابن، ويدعو الله أن يحفظه له. إضافة الى أن عمله ذاك كان أيفاء لنذر كان قد قطعه على نفسه، أن يذهب ماشيا

(١٣) أبو الفضل «أكبر نامه» ج/٢ ص/٥٣٠.
(١٤) البدعوني «منتخب التواريخ» ج/٢ ص/١٤٠.
(١٥) «مذكرات جهانكير» ج/١ ص/٢؛ انظر كذلك: أبو الفضل «أكبر نامه» ج/٢ ص.ص/٥٣٦ وبعدها.
(١٦) ما يتعلق بذلك الفتح، اوردها: أبو الفضل «اكبر نامه» ج/٢ ص.ص/٥٣٨ وبعدها؛ والبدعوني «منتخب التواريخ» ج/٢ ص/١٤٣ وبعدها.

على قدميه، من عاصمته «اكرا» الى «مدينة اجمير» ان هو رزق بمولود، لزيارة تلك المدينة، التي تعتبر من أهم المدن التي يقدسها، مع أشد الأسف، في هاتيك الأراضي المسلمة، ويشدون الرحال اليها. ولقد زارها ذلك السلطان ماشيا على قدميه في شتاء عام ٩٧٧هـ (١٥٧٠م)، كما قام بزيارة أضرحة وقبور أخر، خلال تلك السنة، والتي تلت، قبل أن يعود، لمشاهدة ابنه الصغير وزوجته.[١٧]

ان الزائر لمدينة اجمير المسلمة سيجد بها العديد من المساجد، التي أشادها السلاطين المسلمون عامة، والمغول خاصة، وكلها تقع متجاورة، وداخل سور واحد، وكل مسجد يحمل اسم مشيده، وكل واحد يختلف في طرازه المعماري عن الآخر. كما يوجد بها منتجع حكام «الهند والسند»، وبحيرته الكبيرة الواقعة الى الغرب من المدينة. وقد أشاد السلاطين المغول منازل للنزهة على شكل خيام، بنيت من الرخام الأبيض، تطل على تلك البحيرة.

الأمر السادس، والأهم في نظرنا بناء «مدينة الفتح في سيكري» ونقل مقره الاداري اليها، حيث رأى السلطان أكبر بأن لقرية «سيكري»، ولساكنيها، وعلى رأسهم الشيخ سالم جستي، حقوقا عليه أكثر من مجرد تسمية ابنه على اسم هذا الشيخ، فرأى بأن حظه السعيد يرتبط ارتباطا وثيقا بهذه القرية، أكثر من أية بقعة من البقاع الأخرى في مملكته. «...، وليعبر عن رغبته الصادقة وحبه العميق، فقد قرر أن يظهر للعالم الخارجي روعة هذه البقعة «سيكري»، والتي تكمن فيها روحانية دينية...»[١٨]. وفي هذا الشأن يقول جهانكير في مذكراته «...، ولقد جعل والدي المبجل عاصمته في قرية سيكري، والتي كانت المكان الذي تمت ولادتي فيه واعتبرها مكان سعد بالنسبة اليه»[١٩].

قرر السلطان أكبر أن ينتقل بعاصمته، ومقر داره من مدينة «اكرا» الى «قرية سيكري» وان يشيد فيها ابنية تليق بها، كعاصمة لدولته المترامية الأطراف؛ وأن يربط بناءها، وتاريخها بذاك الشيخ، لتكون جزءا من التاريخ المغولي، كما تعيش المدينة، وسلاطينها وأسرهم في تلك البقاع. «...، لذلك فقد أصدر أوامره، الى ذوي الاختصاص في دولته، بأن يشيدو أبنية شامخة لسكنى الشاهنشاه الخاصة. وقد قام كافة الموظفين، بمختلف فئاتهم، والناس عامة، ببناء مساكن خاصة بهم؛ كما شيد حائط عال، وقلاع من الصخور حول ذلك المكان. وفي فترة زمنية قصيرة أضحى ذلك المكان مدينة كبيرة، ذات طابع معماري متميز...»[٢٠]. لقد قامت

(١٧) البدعوني «منتخب التواريخ» ج/٢ ص/١٢٧.
(١٨) أبو الفضل «اكبر نامه» ج/٢ ص/٥٣٠.
(١٩) «مذكرات جهانكير» ج/١/٢.
(٢٠) أبو الفضل «أكبر نامه» ج/٢ ص/ ٥٣٠ — ٥٣١.

المدينة بمبانيها العديدة والهائلة الحجم، في زمن قياسي جدا، لأسباب كثيرة، لعل منها:

١ ــ سهولة استخراج مادة البناء الاساسية، وهي الحجارة الرملية الحمراء، لدرجة ان صفائح الحجارة كانت تستخرج ثم تنشر بالمنشار، وكأنها أخشاب؛ فتوضع على السقف، بأحجام مختلفة، حسب الطلب، طولا أو عرضا، حيث تظهر وكأنها لحاف منشور.

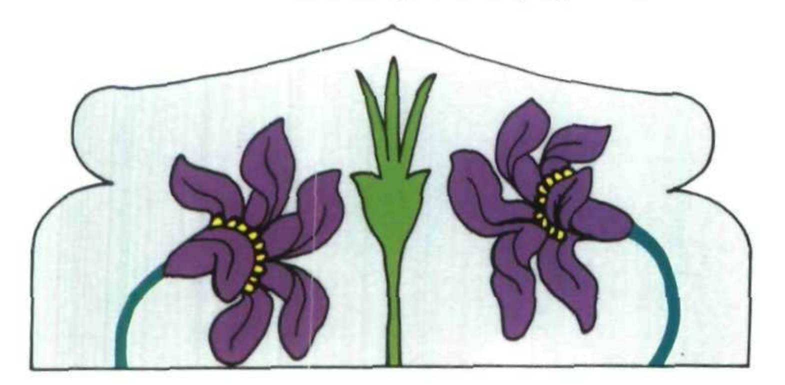
٢ ــ قرب مقاطع تلك الحجارة، حيث كانت تستخرج من نفس التل الذي بنيت عليه المدينة نفسها.

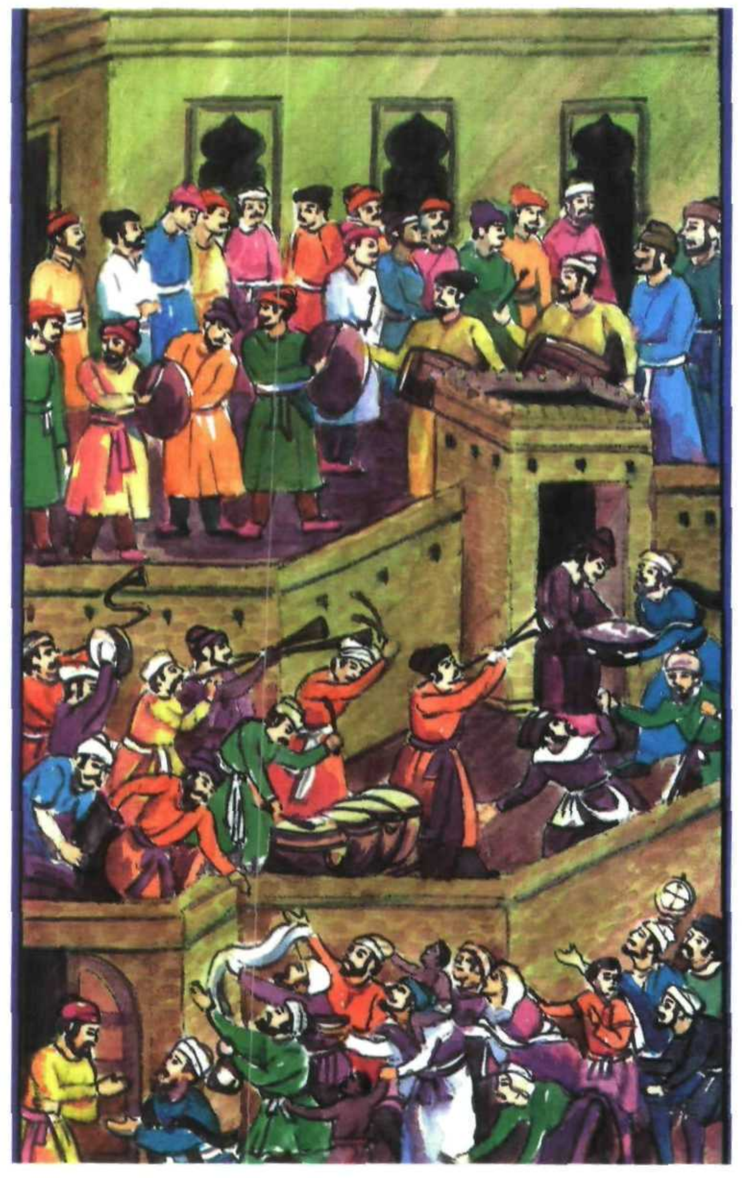
٣ ــ الاشراف المباشر من جانب السلطان أكبر نفسه، حتى ليقال بأنه كان يشارك العمال، تارة في البناء، وأخرى في تقليع واستخراج الحجارة، ومرة يساعد في نقلها.

لذلك نجد مدينة أكبر الجديدة قد حوت بين جنباتها مباني تخدم أغراضا اجتماعية متعددة «... فأقيمت أبنية ذات طابع خيري عام، مثل المدارس، وحمامات الاستحمام، وأماكن العبادة؛ وبني كذلك سوق كبيرة، أما المناطق المجاورة لتلك الأبنية، فقد أقيم عليها حدائق ذات بهجة. لهذا، فقد ظهر ذلك المكان وفيه حشد هائل من الأبنية الكبيرة مجتمعة، في تلاحم، وتناسق منسجمين، بشكل جعلها موضع حسد العالم. لذلك فقد سماها «السلطان اكبر» «الفتح العامر» فتح آباد، ورغم هذا أضحت، ومع مرور الزمن أصبحت تعرف بمدينة الفتح[٢١]. «...، بعد أربع عشرة أو خمس عشرة سنة أصبح ذلك التل...، مدينة تحوي بين جنباتها كافة أنواع المباني الجميلة، والحدائق الغنَّاء؛ حيث القصور الشامخة، والمباني الرائعة، والأماكن البهيجة والأخاذة»[٢٢].

إن الزائر لتلك المدينة، في الوقت الحاضر، لا شك، ستأخذه الدهشة والانبهار، المشوبين بالاعجاب تارة والتفاخر تارة أخرى بما أشاده أولئك القوم، عندما يقف أمام كل مبنى، من مباني هاتيك المدينة الاسلامية؛ وسيزداد دهشة وإعجابا بفنها، وروعة بنائها، وسر تماسك كل قطعة من بنيانها، كلما أمعن النظر، وتعمق في أشكال هندستها العجيبة، ثم رجع بذهنه الى الوراء لقرون عديدة، وتذكر أن تلك المدينة كانت قد شيدت منذ أربعمائة وثلاثين سنة تقريبا.

شرع السلطان أكبر في بناء «مدينة الفتح» في عام ٩٧٧هـ (١٥٦٩م) وانتقل اليها بعد ثلاث سنوات أي في عام ٩٨٠هـ (١٥٧٣م)، بشكل رسمي، كما يبدو لنا، لأنه كان قد بنى منزلا لزوجته لتسكن فيه (خلال أشهر حملها الأخيرة والفترة القصيرة التي تلت، حتى انتهى من بناء قصرها الفخم داخل المدينة) وظل يتردد اليها هناك حتى استكمل بقية المباني تباعا، بكافة مرافقها، العامة والخاصة □





رسم للاحتفالات بمناسبة مولد الابن سالم.

---

(٢١) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحات.
(٢٢) «مذكرات جهانكير» ج/١ ص/٢.



بقلم: الاستاذ محمد رجاء حنفي عبد المتجلى/القاهرة

ان الدوافع للسلوك لا تظل بصورها الفطرية في العادة، وانما تنتظم وتتعدل مع مرور الزمن لينتج عنها ما يسمى بـ «العواطف» احيانا. ولنا أن نتساءل ما الذي يدفع الفرد لسلوك خاص مع والده؟ أهو عاطفة تكونت ومركزها الوالد؟ وما الذي يدفع الفرد لمحاربة الرذيلة؟ أهي عاطفة كراهية الرذيلة؟ وكاجابات على هذه التساؤلات نقول ان العواطف لدى الفرد تتكون نتيجة الخبرات المتكررة ذات الصلة بموضوعات هذه العواطف.

والعواطف هي عبارة عن دوافع مكتسبة من السلوك، ويترتب على تكوينها تعديل نوع السلوك ومن ثم تنظيم الدوافع الفطرية وتوجيهها وجهات معينة بقيم تتحدد بعناصر البيئة المحيطة، ويعتبر تكوينها من أهم الأمور ملاءمة لعقل الفرد في بيئته.

وهي تكسب الفرد قسطا وافرا من الثبات والاستقرار ووحدة الاتجاه، وتجعلنا قادرين على التنبؤ بسلوكه، لأن الفرد بعد أن يكون قابلا للاتجاه في أية وجهة مرتبطة بما يستثير غرائزه يصبح هامدا ولا تستثار غرائزه إلا وهي مرتبطة بموضوعات معينة تجذب انتباهه، وتستحوذ على مشاعره، وتمتلك وجدانه.

والعواطف الرئيسية لدى الانسان لا تخرج من عواطف الحب والكراهية، ولذا فالموضوع الذي بتكراره يرتبط بخبرات سارة في مجموعها تتكون حوله عاطفة حب، والموضوع الذي بتكراره يرتبط بخبرات مؤلمة في مجموعها تتكون حوله عاطفة كراهية، ومن العواطف المألوفة في حياتنا على سبيل المثال: عواطف الاحترام، وعواطف الاعجاب، وعواطف الصداقة، وعواطف الاحتقار، وكل عاطفة يتمركز فيها موضوع محدد.

والعواطف على وجه العموم مادية ومعنوية، فالمادية مثلا تتمركز فيها المحسوسات، كالأفراد والأشياء، وأما المعنوية فتتمركز فيها المعنويات، ومن هذه: حب الجمال، وحب الصدق وحب الشرف. وهذه العواطف تتطور مع نمو الفرد ونمو خبراته، فباتساع دائرة خبرات الفرد تتسع دائرة عواطفه أو ميوله، ولهذا التطور في عواطف الفرد قيمة كبيرة في إنماء شخصيته، وتوسيع مجالاتها.

الحاجة إلى الحب

إن عاطفة الحب ذات جذور عميقة في حياة الانسان، فلو ماثلنا بين الانسان وغيره من الكائنات لوجدنا ان الوليد البشري يولد عاجزا عن التكيف بنفسه مع البيئة الاجتماعية والطبيعية المحيطة به، بعكس الوليد لدى بعض الحيوانات، فالكثير من صغارها لا يكاد يمضي على ولادتها أيام، بل ساعات حتى يقف على قدميه، ويستقل بنفسه، بينما الوليد البشري يظل مدة طويلة يحتاج فيها الى من يرعاه، ومن يقدم له الطعام، ومن يبدل له ملابسه، ومن يعلمه اللغة والمشي، وما الى غير ذلك من العادات الهامة التي لا يستطيع الانسان ان يعيش بدونها.

ونتيجة لهذا العجز ينشأ الطفل معتمدا على الآخرين، لدرجة تتولد لديه الحاجة الى الرفيق، وتشبع هذه الحاجة خلال ارتباطه بأعضاء أسرته، ثم تتسع دائرة الاشباع نتيجة

لارتباط الفرد بالآخرين، الذين يسهمون بدورهم بإشباع مختلف حاجاته.

والواقع أن الوليد البشري، خلال طفولته يحتاج فيها الى رعاية الآخرين والاعتماد عليهم، بحيث تتولد لديه طريقة للفت انتباه الآخرين، وتقديرهم، وحبهم له.

وتعتبر الأم أول إنسان يحرص الطفل على شد انتباهه اليه، وتقديرها وحبها، لأنها هي أول إنسان يتعرف اليه الطفل، فهي تشبع له الحاجة الى الطعام عن طريق الارضاع، والحاجة الى تجنب الألم عن طريق تبديل ملابسه ورعايته والحرص على سلامته من الأخطار، وبالتدريج يصبح وجه الأم ملازما باشباع هذه الحاجة الأولية الهامة لديه، والتي لا بد منها للطفل، حتى انه يرغب بعد ذلك في وجود والدته لذاتها.

ومن الملاحظ أن الطفل الذي يبكي في غياب والدته يمتنع عن البكاء بمجرد أن تحضر لتحمله، وهو يتعلم كيف يفرق بين وجه والدته وبين وجه غيرها من النساء، وذلك لتلازم وجه والدته بالاشباع. ومن الطريف أن يتعلم الطفل أن والدته لا تشبع حاجته من الطعام، وغيرها من الحاجات الأخرى إلا حينما تكون متنبهة اليه.

وبتكرار هذه الخبرات يتعلم الطفل أن الحصول على انتباه الآخرين وحبهم له شيء هام وضروري لاشباع حاجاته المختلفة، لأن الانتباه والحب والتقدير إنما تعني كلها أن الآخرين مستعدون لأن يشبعوا للفرد حاجاته الاساسية.

ومن هنا تتضح الجذور العميقة للحاجة الى الحب، التي تمتد في طبيعة الانسان منذ الطفولة، وكذلك يتضح مدى أهمية هذه الحاجة للطفل ليعيش، وليشعر بالأمن والأمان والطمأنينة.

الحب في الطفولة

هناك الكثير من الأسر لا توفر الحب والحنان لأطفالها، وذلك إما لجهل الوالدين وعدم معرفتهم بهذه الحقيقة الهامة، وإما للظروف السيئة التي يعيشونها، الأمر الذي يؤدي الى تحطيم نفسية الأطفال بسبب عدم إشباع الحاجة الى الحب، فعلاقة الطفل بوالدته خلال السنوات الأولى عامل أساسي لصحته النفسية.

والحاجة الى الحب هي أولى الحاجات التي يحتاج الطفل الى إشباعها، فهو محتاج الى أن يشعر بأن هناك حبا يدفئه، والحرمان من حنان الوالدة وعطفها من أشد العوامل خطرا على الحياة بالنسبة للطفل. وأبسط ما يؤدي اليه هذا الحرمان من الحب هو القلق، وغيره من ألوان الاضطراب النفسي، كزيادة المخاوف، والاضطراب في النوم، وفقدان الشهية للطعام، وضعف الثقة بالنفس، والشعور بالتعاسة، بيد أن هذا لا يعني انه يجب أن تقضي للطفل كل حاجاته، دون أن يقوم هو ببذل الجهد للحصول عليها.

إن الافراط في الحب مثله في ذلك مثل الحرمان منه تماما، كلاهما ضار، فالاكثار من الطعام ضار، والحرمان منه ضار ايضا، وكذلك التدليل، فهو يعد من أخطر الأشياء على الصحة النفسية للطفل، ويكون سببا في تعطيل نموه، وذلك للأسباب الآتية:

* عدم اتاحته الفرصة للطفل للاستقلال بنفسه.
* عدم تنمية الطفل لذاته المستقلة المنفصلة عن الآخرين.
* فقدان الطفل ثقته بنفسه.
* شعوره بالعجز عندما يقارن بغيره من لداته، أو حين يخرج الى الحياة الاجتماعية الفسيحة، التي لا تغفر له عجزه عن إشباع حاجاته، وأداء دوره في الحياة الاجتماعية.

إن الكثير من الأمهات يدمرن أطفالهن بشكل يشعرهم بالعجز التام، وذلك عن طريق عبارات لا تترك للطفل شيئا يصنعه بنفسه، ومثل هذه العبارات من شأنها أن تحيط الطفل بأسلاك شائكة من الحب، وهذا يجعله يركز تركيزا شديدا على نفسه، ويكبر ثم يخرج الى الحياة الاجتماعية دون دربة فيصطدم بها بسبب تلك الحواجز التي فرضت عليه من قبل أسرته ظنا أنها سوف تجعله إنسانا سويا، إلا أن النتيجة تكون عكسية.

وكما أن الاسراف في الحب، ينمي في الطفل صفات الانانية بشتى أشكالها، فهو في الوقت ذاته يجعله على الدوام داخل ذاته متصورا نفسه مركز الحياة، وعندما يشب وينمو ويصبح رجلا، ويخرج الى الحياة، لا يجد نفس الاهتمام الذي كان يجده وهو طفل صغير كما أسلفنا. بل انه يشعر ان الدنيا لا تقدره، الأمر الذي يجعله يتخذ شعورا مغايرا نحو العالم الخارجي ليتكون لديه احد الأمرين التاليين:

* الأمر العدواني.
* الأمر الانسحابي أو الانعزالي عن الحياة.

وبذلك يختل توافقه النفسي مع الآخرين، لأن العدوان والانسحاب، أو الانعزال، كلاهما مضران بالصحة النفسية، ومخلان بالتوافق، وهذان الشكلان ينشآن إما عن الحرمان من الحب، أو من الاسراف فيه، وتدليل الأطفال.

الحاجة إلى الحب في المراهقة

تنتهي فترة الطفولة عادة عند سن الحادية عشرة، أو الثانية عشرة تقريبا، ليبدأ الطفل بعدها في دور جديد، تظهر فيه تغيرات كثيرة، بعضها ظاهر، وبعضها خفي، وهذه المرحلة على وجه العموم مرحلة نمو سريع في الوزن والطول، وفقدان بعض الدقة والتوازن في الحركات، وينتج عن هذه المظاهر وما يشبهها حساسية شديدة. وحالات انفعالية تحتاج الى العناية والرعاية.

وتتميزهذه الفترة أيضا بالميل الى التحرر من المنزل، والانتماء الى مجموعة من الزملاء؛ وعند انفصال المراهق عن

الانتماء النفسي للمنزل، يميل الى البحث عن بطل يعجب به، ولعل سبب ذلك يعود الى تفتح ذهنه لآفاق جديدة، وعدم اكتفائه بما عرفه عن والديه من خبرة، وكراهية الخضوع لسلطتهما عليه، خاصة ان هذه السلطة تذكره بطفولته، اذ يعامل الآباء عادة المراهق — ولو لفترة من الزمن — بنفس المعاملة التي تعودوها معه أثناء مروره بدور الطفولة.

وفي هذه المرحلة يبدأ المراهق بانتقاد والديه علناً في بعض الأحيان، أو سرا بينه وبين أصدقائه، أو بينه وبين نفسه، وقد يعتبر والده غير متفتح في بعض الأحوال، بل قليل الجرأة والحيلة،وليس لديه ميل الى التجديد، وعلى وجه العموم فالمراهق يأخذ في الاستقلال عن المنزل والاتصال بالمجتمع، والبحث عن شخص يجسد من خلاله المثل الاعلى الذي يرتضي لنفسه أن يقلده.

ويظهر في هذه المرحلة ميل الفرد الى الانتماء للبيئة المحيطة به، ويتضح هذا في حساسيته للجماعة التي ينتمي اليها، وميله الى تقليد أفرادها، وهنا يحاول استغلال الجماعة، وذلك بميله الى جماعة منظمة لانماء روح التعاون الاجتماعي، وتقوية هذا الشعور لديه. وتظهر بوادر بعض شرائح المجتمع تستغل ميل المراهق بشكل ايجابي لارضاء المجتمع في تكوين الخلق لديه، على أن تعتبر هذه بمثابة خطوة للمرحلة التالية في التكوين الخلقي، وهي مرحلة العمل على إرضاء ضمير الخلق.

إن الحاجة الى الحب في فترة المراهقة تعتبر شيئا أساسيا لصحة المراهق النفسية فهي السبيل الى أن يشعر بالتقدير والتقبل الاجتماعي. ولكي يكون شعوره بهذا شعورا صحيحا يجب ان يعترف له بهذا الحب، ويجب أن يتأكد ذلك في كل مجال من المجالات التي يتحرك فيها المراهق ويجب أن يترجم الى أعمال وعبارات يتأكد من خلالها المراهق انه وضع التقدير والاعزاز.

إننا عندما تناولنا الحب في مرحلة الطفولة، وجدنا أن الطفل يهتم أول ما يهتم بحب والديه والمهتمين به في داخل نطاق الأسرة، ذلك لأن عالم الطفل يكون محدودا بهذا النطاق في تلك الفترة. بيد أنه عندما ينمو ويكبر ويدخل في مرحلة المراهقة، تتكون لديه الحاجة الى الاستقلال بنفسه، وتبدأ علاقاته خارج المنزل تتسع، ويبدأ في تكوين صداقات جديدة مع لداته وأقرانه، وتكون هذه الصداقات من القوة لدرجة أنها تؤثر تأثيرا بالغا في نفسية المراهق.

وكثيرا ما نجد المراهق مهموما مبتئسا، لفشله في الحصول على تقبل زملائه له، أو لاختلافه معهم. ومن هنا فاننا نجد أن المراهق في حاجة كبيرة الى أن يشعر بحب أقرانه من زملاء اللعب أو المدرسة، لأن المراهق يود أن يشعر من حين لآخر بأن الآخرين يحبونه، ويحرص كذلك على أن يحصل على حب من يكبرونه في السن والمركز الاجتماعي.

وإذا حصل المراهق على حب اقرانه وأبطاله، فإن ذلك يكون لديه أسلوبا لحب الغير وحب نفسه أيضا إذ أنه بمجرد حصول هذا الحب فإنه يستطيع ان يندمج مع أفراد المجموعة، ويستطيع ان ينشيء علاقات بينه وبين غيره من الكبار، وبذلك تتهيأ له الفرصة لأن يهب نفسه لهم ويشعر بأنه قادر على أن يحبهم بما يبذل في سبيلهم.

حب المراهق لنفسه ليس نتيجة رغبة مستقلة عن غيرها، لأن المراهق اذا استطاع ان يحصل على حب الآخرين وتقديرهم، واذا امكنه ان يحبهم ويهب نفسه لهم، فإن ذلك من شأنه أن ينمي الثقة في نفسه، واذا ما تم ذلك فإن باستطاعته أن يتقبلها ويحبها، ويكون حب نفسه دافعا على العمل والانتاج، والارتباط بالجماعة، فينشأ جريئا قادرا على تكوين علاقات اجتماعية سليمة، ويكون هذا الحب سبيلا الى التوافق مع نفسه ومع غيره لأن فكرة الفرد عن نفسه من أهم العوامل التي تؤثر في ثقته في نفسه، فكلما كانت فكرته عن نفسه واضحة حسنة كان سلوكه متكيفا متكاملا.

وعلى العكس من ذلك، فإن المراهق اذا لم يكن قادرا على حب نفسه فإنه يشعر بالشك في حب غيره له، لأن الفرد الذي لا يكون قادرا على حب نفسه يكون عرضة لأن يتخبط في مطامعه، فينتج عن ذلك أشياء مؤسفة، من أهمها: شعوره بالفشل، وشعوره بالعجز عن اكتساب مركز له، وقد يضطره عجزه وفشله الى مختلف أساليب التعويض، والسلوك المنحرف.

إن الحب يعتبر من أهم مظاهر الحياة التفاعلية للمراهق، فهو يحب الآخرين ويحتاج الى حب الآخرين له، ولا جدال في أن إشباع الحاجة الى الحب والمحبة من ألزم ما يكون لتحقيق الصحة النفسية للمراهق.

والحب أمرٌ مهمٌ بالنسبة للعلاقات الاجتماعية للمراهق، فالحب المتبادل يزيد الالفة، ويزيل الكلفة، ويقضي على العدوان، ويجعل الاتجاهات النفسية أكثر ايجابية.

والحب قوة علاجية جبارة للكثير من المشكلات، وهو يفسح الطريق الطبيعي السمح أمام مسار النمو النفسي السوي، وهو يضفي على الحياة بهجة، ويدعو دائما الى التفاؤل، ويشعر الفرد بقيمته، ويشعره بالقبول والتقبل.

ومن الملاحظ أن الحب تتنوع موضوعاته وأبعاده بين: الحب الأبوي — أي حب الوالدين، وحب الأخوة والأخوات، والحب الرومانتيكي المشوب بالاعجاب والاحترام، ويتسع مجال الحب ليشمل الاصدقاء الذي يجتمعون على ميول مشتركة ومشاعر متبادلة، وأفراد الجنس الآخر، وتمتد انفعالات الحب لتشمل حب البشرية والحق والجمال والقيم.

إن إشباع الحاجة الى الحب شرط أساسي لصحة الفرد النفسية، والسبيل الهام الى توافقه واذا كان الأمر كذلك فلا بد من أن نحرص على إشباع هذه الحاجة حتى ينشأ الأفراد أصحاء في نفوسهم أسوياء في سلوكهم □

في ظلال الك

شعر: محمد المج

سعيد أنا في ظلال الحرمْ ... فلا تسألوني بماذا.. ولِمْ؟..
أحِسُّ بجسمي فوقَ الأثير ... وقد خفَّ بل شفَّ حتى انعدمْ
فلا عجبٌ أن يموتَ البيانُ ... ويعيا بوصف رؤايَ القلمْ
أكادُ أرى هاجراً والصغيرَ ... يُروِّعُهُ الظمأُ المحتدِمْ
فتجري هناك، وتعدو هنا ... وفي سمعها صرخاتُ الألمْ
تُفتشُ عن جرعةٍ تُنقذ الـ ... ـوليدَ وتطفيءُ بعض الضرمْ
وقد اوشك اليأس يجتاحُها ... فتُسلمُ ذا ثديها للعدمْ
ولكنَّ ربَك لم ينسَها ... وادركَها بجزيل النِعَمْ
فذلك جبريلُ يحبو الثرى ... بريِّ النفوس وبُرءَ السقمْ
يمسُّ بقادمتيهِ الترابَ ... فيدفقُ بالعذبِ حتى يطِمْ
وها هي ذي زمزمٌ لا تزال ... الى اليوم والغدِ وردَ الأممْ

* * *

وألمحُ ثَمَّ أبا الأنبياء ... وبين يَديه فتاه العَلَمْ
يقيم قواعد هذا البناء ... وقد خطَّط الرسم باري النَّسَمْ
ويؤمر اذ ينتهي أن يُذيع ... على الكون بشرى الذي قد أتمْ
فيهتف في الناسِ: هذا المقام الـ ... ـذي شاء ربُّكمو أن يُؤَمْ
فتنداح صيحتُه في السهول ... وخلف البحار وفوق الأكَمْ
ويأتيه سعيا وفوق المتون ... أولو الحظِّ من كل فج ويَم

* * *

وأبصر أبرهة في الجيوش ... ومن تحته الفيل طودا أشمْ
يطاول بالكبرياء النجومَ ... ويحسَبُ في قبضتيه السُّدُمْ
يسير الى مكةٍ منذرا ... بَنِيَّتَها بالبلاء الأعمْ
وييأس / شيبة / من حولِه ... ومن حولَه فينادي: هلُمْ
دعوا البيت وانجوا بأنعامكم ... فبيت المهيمن لا يُقتحَمْ
سيحميه منهم غدا مثلما ... حماه على الدهر منذ القِدمْ
وفرَّ عن البيت حُرَّاسه ... سوى واحد عينه لم تَنَمْ
وحاول ذو الفيلِ تسييرَه ... الى مكة فأبى وانهزمْ
على أنه كلما ردَّه ... الى غيرها خفَّ لا بل هجمْ
وجاء القضاءُ بأجناده ... من الطير كالقسطل المُدْلَهِمْ
فراحتْ تصبُّ مناقيرُها ... على الظالمينَ رجومَ النقمْ
وما هي الا هنيهاتُ حتى اسـ ... ـتحالَ الغزاة كعصف هُضِمْ

* * *

وتمضي المشاهدُ حتى ارى ... امام النبيينَ يمحو الظلمْ
ينادي: الى الله يا ضائعون ... ومن يَتَّبِعْ هديَه لم يُضَمْ

وعن كتْبِ ندوة المشركين
وترمي بلالاً واخوانه
يريدون منهم ولو نبسة
فلا يسمعون من المؤمنين
كأني بأسماعهم كلما
وألسُنِهم كلما رُوودَتْ
وتهتف بل احدٌ احدٌ

*

وينطلق الروح في مدِّه
فاشهد عودة خير الأنام
وقد ذلَّل الله أعداءه
يقول لهم: ما تظنون بي؟
ألستَ الجوادَ الذي لا يزالُ
أخٌ صان عهد الإخاء لنا
ويرسلها بشريات سرتْ
الا فاذهبوا.. أنتم الطلقاءُ
ويومي لرمز الضلال الذي

فهرس المجلد السادس والثلاثون ١٤٠٨هـ

وذكريات

عبة المشرفة

وب/المدينة المنورة

تحوكُ لحربِ الحبيبِ التُّهَمْ
مـن القارعـات بسيلٍ عـرِمْ
تُسجِّلُ نصـرا لحزب الصنـمْ
سوى ما يضاعف تلك الحُمـمْ
دعاهـا الطغـاة اعتراها الصمـمْ
على الكفـر أفضى اليها البَكَمْ!
فتصغي البطـاحُ وتهفو القمـمْ

*

الى عالـم قبلـه لـم يُـرَمْ
الى ها هنا في ليوث الأجَـمْ
فليس لهـم دونه مُعتصَـمْ
فيضـرع كلهمو في نـدمْ:
يقابـلُ زلاتنـا بالكـرمْ
وفـاءً وبـرا بحق الرحِـمْ
بسمع الزمـان كأشهى النَّغَـمْ
ولا تجزعـوا.. لستُ بالمُنتقمْ
على البيت منذ «لُحَيٍّ» جَشَـمْ(1)

فتهوى الطواغيت من فوقِه ... منكَّسةً بعد ذاك العِظَمْ
كذلك يعلو بناءُ الأباطيـ ... ـلِ حتى اذا الحقُّ جاء انهزمْ
ويزجي بلالٌ نشيدَ السماءِ ... بأعلاه عذبا يهزُّ الأصمْ
ولكنَّ «عتَّاب»(2) والحائرين ... يرون بذاك انتهاك الحُرَمْ
أعَبدُ امية نسل السواد ... علا البيت!! يا للبلاء العَمَمْ!!
ولا ريب أنَّ امرءاً آثر الـ ... ـحمام على هذه لم يُلَمْ
ويهمس وابني «هشامٍ وحربٍ»(3) ... حديثا يفيض بمثل اللمَمْ
وقد حسبوا انه قد ثوى ... بأعماقهم حيث لا مُقتحمْ
ولكنهم فوجئوا بالرسول ... يُميطُ اللثام عن المُكتتَمْ
ينبئهم بالذي غيَّبتْ ... صدورهمو من رهيب الكلِمْ
فلا يستطيعون ردا وقد ... دروا انه الحق من ربهمْ

* * *

ووافى فضالة مستخفيا ... ويخفي وراءَ الرداءِ الخَذِمْ(4)
يمنّي/ مناة/ بأن لا يعود ... اذا لم يُخضِّبْه من خير دمْ
وأطمعه ان رأى المصطفى ... نجيَّ الاله لدى المُلتزَمْ
فأحكَم قبضته في الحسام ... وراح يراقبه من أممْ
وهم.. ولكن سرت رعدة ... به تتلاشى لديها الهممْ
ولما أتم الرسول الصلاة ... تطلع في وجهه وابتسمْ
وأدناه يسأله ما به؟ ... فلم يبدأ الرد حتى وجَمْ
فمد الى صدره راحةً ... بلمستها كم شقاء حسمْ

* * *

وعاد فضالة في غمرة ... من الوجد فوقَ مجال الحُلُمْ
وليس أحب الى قلبه ... من المصطفى بعد محيي الرِّممْ
ففي لحظة طهرت روحه ... فليس لها في سوى الله همْ
ويعبر بامرأة طالما ... غزَتْ قلبَه قبلها فانهزمْ
فتهتف: هيا الى شأننا ... ويهتف: يأبى الهدى والشممْ
تنحي فبالحق ثاب النهى ... وبالنور ليل الضلال انحسمْ
ولن ينكأ الإثم جُرحا أمِرَّتْ ... يدا احمد فوقه فالتأمْ
ولن يقرب الغي صدرا أضاء ... جوانحه حب خير الأممْ

* * *

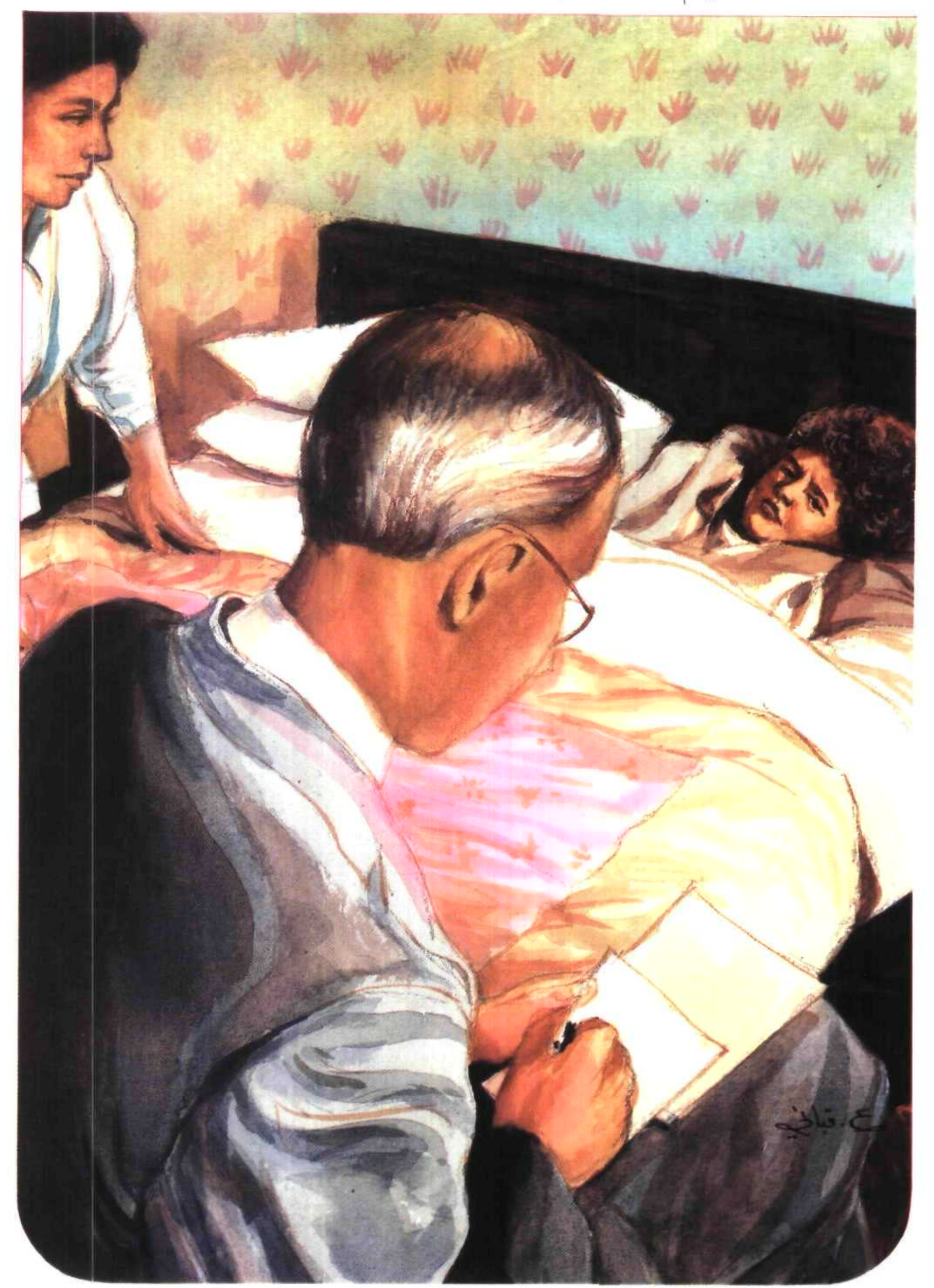
وأمضي.. وأمضي، ولولا الأذان ... توالت رؤاي فلم تنفصمْ
فليت مواكبها لم تكفَّ ... وأحلامها البيض لم تنصرمْ
ولكن حبيبٌ نداءُ الصلاةِ ... ولا سيما في ظلال الحَرَمْ

(1) ابن لحي أول من أدخل الأوثان الى مكة.
(2) عتاب بن أسيد.
(3) الحارث بن هشام وابو سفيان بن حرب.
(4) الخذم: السيف.

من المشكلات الطبية الشائعة

الحمّى عند الأطفال

بقلم : الدكتور عبد الرحمن عبد اللطيف النمر / الرياض



من النادر ان ينقضي عام على طفل صغير دون أن يشكو من مرض تصاحبه حمّى. فالحمى «ارتفاع درجة حرارة الجسم فوق المعدل الطبيعي» مرادفة لمعظم أمراض الطفولة. وشيوع الحمى عند الأطفال مشكلة طبية ذات أبعاد خطيرة. فمن ناحية، قد يترتب على قصور علاج بعض الحميات مضاعفات خطيرة تلازم الصغير بقية عمره.

ونظرا لأهمية هذه المشكلة الطبية، فإننا ننظر الى جوانبها المختلفة على السطور التالية.

موقف الآباء

يحسن بنا أن ننصرف في بداية هذا العرض الى موقف الآباء من مشكلة حمى الاطفال:

من الطبيعي أن يشعر الوالدان بالقلق عندما يصاب طفلهما بالحمى. ومن الطبيعي كذلك أن يدفعهما الخوف على الصغير والحرص على سلامته الى اتخاذ عدد من التدابير، مثل إلزام الصغير بالخلود للراحة في الفراش، وتدثيره بالأغطية، ثم إستدعاء طبيب ليدلي برأيه في الأمر!

تثور ثائرة الوالدين عندما يعتذر الطبيب المستدعى عن الحضور الى بيت الطفل المريض! فخلافا للاعتقاد الراسخ بأن الطبيب عليه التزام أخلاقي بضرورة تلبية النداء حال استدعائه، هناك الخوف على الصغير من «لفحة برد» تصيبه إذا خرج من فراشه ليذهب الى عيادة الطبيب!

وعلى الرغم من أن كثيرا من الأطباء يلبي نداء الاستدعاء، فإن عدم حضور بعض الأطباء لعيادة الطفل المريض في بيته يجب ألا يكون مثارا لغضب وسخط الوالدين! فحميات الأطفال ليست من الطوارىء الطبية (أي الحالات التي تستلزم تدخلا طبيا عاجلا) اللهم إلا إذا كان المريض في حالة خطيرة فعلا. ويحدث ذلك غالبا عندما يتجاهل الوالدان مرض الصغير يومين أو ثلاثة فتستفحل العلة! ثم إن الخوف على المريض من «لفحة برد» لا مبرر له، ولن يزيد المرض سوءا على أية حال!

وإذا كان في الامكان حل مشكلة هل يحضر الطبيب الى المريض، أم يذهب المريض الى الطبيب، فسرعان ما تنشأ مشكلة أخرى: فحميات الأطفال مألوفة لمعظم الأطباء. لهذا كثيرا ما يقوم الطبيب بفحص سريع للطفل المريض، يصف على أثره الدواء. وهذا الفحص السريع لا يرضي كثيرا من الآباء! فضلا عن أنه لا يذهب بمخاوفهم وقلقهم على الصغير. وقد تؤدي شكوك الآباء في جدوى الفحص الطبي الى عدم إعطاء الدواء للصغير! الأمر الذي يخلق مشكلة جديدة هي تأخر الشفاء، أو حدوث مضاعفات!

وثالثة الأثافي، أن ينتكس الصغير، أو أن تعاوده الحمى نفسها بعد شفائه منها. فعندها يتهم الطبيب المعالج بالجهل أو بالتقصير أو بموت الضمير! وقد تساق في حقه كل هذه الاتهامات مجتمعة! بينما الحقيقة الطبية أن بعض حميات الأطفال يتكرر حدوثها عند الطفل ذاته، لأسباب تتعلق بطبيعة المرض والعامل المرضي المسبب للمرض، دون أن يكون للمهارة الطبية أي ضلع في الأمر!

وكما يجد الآباء أسباباً ومبررات معقولة للثورة على الأطباء كذا يجد الأطباء من تصرفات الآباء ما يثير حنقهم وغيظهم! فكثيرا ما يفضل الآباء الأخذ بـ «وصفة الجيران» على الأخذ بنصيحة الطبيب! بينما تحظى «تجارب الأجداد» بأولوية منقطعة النظير عند علاج أي حالة مرضية في كثير من الأسر! وعندما تؤدي نصائح الجيران وتجارب الاجداد الى تدهور الحالة، يطلب من الطبيب أن يعيد الأمور الى نصابها!

أسباب الحمى

تتعدد أسباب الحمى عند الأطفال بتعدد أجهزة الجسم وبتعدد الكائنات الحية الدقيقة «الميكروبات» المسببة للمرض. بيد أن أهم أسباب الحمى — أو بالدقة الأمراض التي تصاحبها حمى — يمكن جمعها في المجموعات التالية:

* **عدوى الجهاز التنفسي:**

تشمل هذه المجموعة أمراض الجهاز التنفسي العلوي الذي يتكون من الأنف والحنجرة، والجهاز التنفسي السفلي الذي يتكون من القصبة الهوائية والرئتين. ومن أمثلة الأمراض في هذه المجموعة: الانفلونزا، والزكام، والدفتيريا، والسعال الديكي، والتهاب القصبة الهوائية، والتهاب الرئتين.

وجدير بالذكر هنا أن بعض الأجزاء المكونة للجهاز التنفسي تشترك — من حيث التركيب التشريحي — مع الأجزاء المكونة لأجهزة أخرى. فمثلا، يشترك الأنف، أو يتصل، بالعينين عبر «القناة الأنفية — الدمعية». كما تشترك الحنجرة مع البلعوم — أو في الحقيقة تتراكب معه — فكلاهما امتداد لتجويف الفم الى الداخل. وتتصل الأذن الوسطى بالبلعوم عبر قناة «استاكيوس». وبسبب هذا التداخل التشريحي، تنتقل العدوى المرضية من جزء أو مكان الى آخر. وهكذا تتأثر أجزاء أو مواضع من الجسم لم تكن محل الاصابة الأولية.

والتداخل التشريحي المشار اليه، يفسر لماذا تحتقن العينان عند الاصابة بالانفلونزا، ولماذا يلتهب الحلق «البلعوم» عند الاصابة بالسعال الديكي، ولماذا تلتهب الأذن الوسطى عندما تلتهب اللوزتان في الحلق، وكيف يمكن ان تنتهي إصابات الأنف والحنجرة بالتهاب الرئتين.

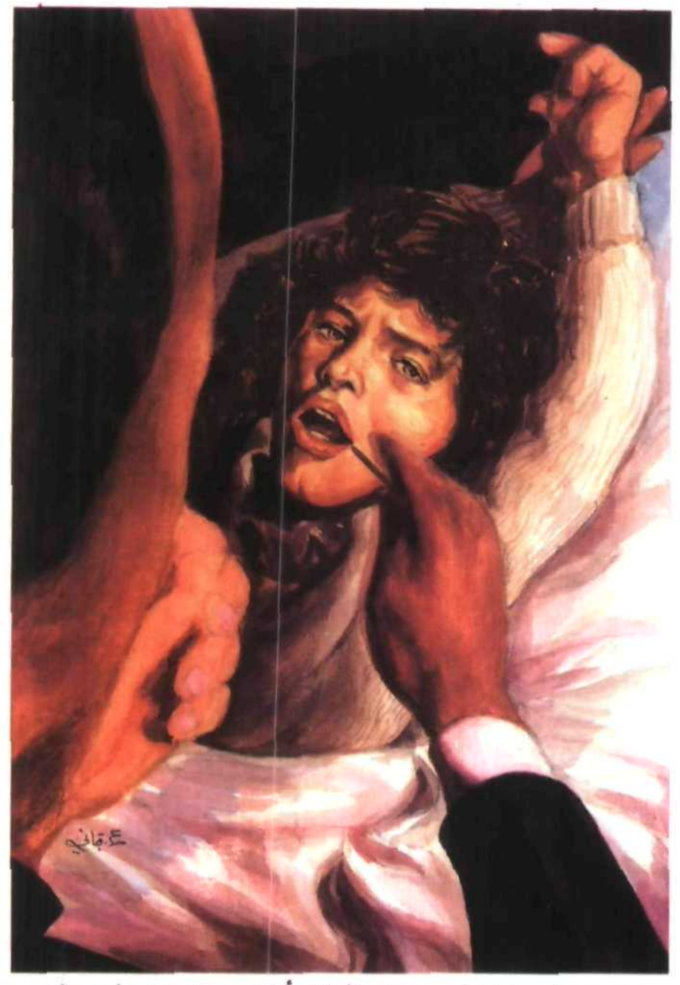
* **الطفح الحاد:**

الطفح الحاد–«Acute Exanthemata»، هي مجموعة من الأمراض الفيروسية «أي التي يسببها فيروس» تؤدي الى ظهور

نُقاط ـــ أي طفح جلدي. وأهم الأمراض في هذه المجموعة الحصبة والنكاف والجدري والحصبة الألمانية.

وهذه الأمراض جميعها حادة، أي تظهر العلامات الأولية للمرض فجأة، عادة في صورة شعور بالاعياء مصحوب بحمى وصداع وفقدان للشهية الى الطعام ورغبة في القيء. ثم تتوالى علامات المرض تباعا في الظهور بسرعة. وتتميز هذه الأمراض بوجود ما يسمى «فترة حضانة ـــ Incubation Period»، وهي الفترة من الزمن المنقضية بين دخول الفيروس الى الجسم وبين ظهور علامات المرض. وعادة تكون فترة الحضانة عدة أيام. فمثلا، فترة الحضانة في مرض الحصبة تتراوح بين عشرة أيام الى خمسة عشر يوما بينما تتراوح في مرض الجدري بين أحد عشر يوما الى واحد وعشرين يوما.

و«الحصبة ـــ Measles» هي أكثر أمراض هذه المجموعة شيوعا. أما «الحصبة الألمانية ـــ Rubella» فهي أكثرها خطورة. وهناك صعوبة شديدة في تشخيص هذه الأمراض في الأيام الأولى من ظهور علامات المرض، وقبل ظهور الطفح الجلدي المميز لكل منها، أو تضخم الغدة النكفية في مرض النكاف. وسبب الصعوبة تشابه العلامات الأولية، سالفة الذكر. و «الغدة النكفية ـــ Parotid Gland» واحدة من الغدد اللعابية، أي التي تفرز اللعاب. وهي تقع فوق زاوية الفك تحت شحمة الأذن مباشرة، على جانبي الوجه.



تعيين درجة حرارة الجسم بميزان الحرارة أفضل من تعيينها بالجس باليد.

• عدوى الجهاز البولي:

يجد الأطفال صعوبة في التعبير عن أعراض عدوى الجهاز البولي، مثل الشعور بحرقان أثناء التبول، وتعكر البول أو ظهور دم فيه. لذلك فإن الحمى المصاحبة لعدوى الجهاز البولي تبقى غير معروفة السبب، الى أن يجري فحص معملي لعينة من البول ـــ ما لم تكن هناك مؤشرات واضحة على طبيعة الاصابة.

ومما يعين على سرعة الوصول الى تشخيص هذه الحالات، أن يتابع الآباء صغيرهم المحموم عند قضاء حاجته، خصوصا إذا كان الطفل دون الرابعة من العمر، لملاحظة أي تغير في طبيعة الاخراج، واعلام الطبيب بذلك.

الخطورة في عدوى الجهاز البولي تكمن في أن العدوى يمكن أن تتحول من الصورة الحادة الى الصورة المزمنة. وبتعبير آخر، انه اذا لم يقتل الميكروب المسبب للمرض بتعاطي مضادات حيوية معينة فيمكن أن يتحول الميكروب الى «ساكن» أو «مقيم» في الجهاز البولي. ويؤدي ذلك الى حدوث نوبات مرضية من حين الى آخر، فضلا عن إلحاق تلف بالغ بالكليتين في المدى البعيد. ويتكون «الجهاز البولي ـــ Urinary System» من الكليتين والحالبين والمثانة البولية وقناة الاخراج أو التبول.

• النزلة المعوية:

على الرغم من كثرة أمراض الجهاز الهضمي التي تصيب الأطفال وتكون مصحوبة بالحمى، فإن أكثرها شيوعا «النزلة المعوية ـــ Gastro-enteritis». وتكثر الاصابة بالنزلة المعوية في المناطق الحارة من العالم. وتكاد تكون من الأمراض الموسمية في أكثر البلاد العربية، اذ يرتفع معدل الاصابة بالنزلة المعوية في شهور الصيف الى نسبة شبه وبائية!

والنزلة المعوية من الأمراض الحادة، التي تتميز بارتفاع درجة حرارة الجسم وحدوث تقلص في الامعاء (أي مغص) يصاحبه قيء شديد وإسهال حاد. والاصابة بالنزلة المعوية تعكس انخفاضا حادا في مستوى النظافة الشخصية والعامة على حد سواء. والسبب الرئيسي وراءها هو تناول أطعمة ومشروبات ملوثة أو فاسدة. وتسهم الحشرات المتعددة، وفي مقدمتها الذباب، في تلويث الأطعمة والمشروبات ونقل الميكروبات.



تدثير الطفل المحموم بأغطية ثقيلة قد يزيد الحمى.

مكامن الخطأ والخطر

من حسن الطالع أن معظم أمراض الطفولة تنتهي بالشفاء خلال أسبوع أو أسبوعين من بداية ظهور المرض. إلا أن هناك قلة من الاطفال تدفع ثمنا باهظا لحمى عابرة أصيبوا بها في سني الطفولة ويتراوح الثمن بين فقدان حاسة السمع أو حاسة الإبصار، الى الاصابة بالعقم أو بالشلل، وأحيانا بالتخلف العقلي! ويتقاسم الآباء والأطباء مسؤولية ذلك! ولذا فاننا نلقي الضوء على مكامن الخطأ والخطر في مشكلة حميات الأطفال:

من الأخطاء الشائعة تقدير درجة حرارة الجسم بجس جبهة المريض براحة اليد! وقد كانت هذه الوسيلة الوحيدة لتقدير درجة حرارة الجسم يوم كان لا يعرف الانسان غيرها. وهذه طريقة غير دقيقة ولا يجب الاعتماد عليها بصورة كلية. وإنما يجب الاعتماد على ميزان الحرارة (الترمومتر — Thermometer» الذي يجب أن يكون متوفرا في كل بيت.

من جهة ثانية، يجب أن يتعلم كل انسان بالغ كيفية قياس درجة حرارة الجسم باستخدام ميزان الحرارة، وما يتعلق بذلك من تعقيم ميزان الحرارة بعد كل مرة يستخدم فيها. والأمر جِدُّ بسيط، ولا يحتاج تعلم ذلك الى وقت أو

جهد أو ذكاء من أي درجة. وسيكون من دواعي سرور أي شخص يعمل في الحقل الطبي، طبيبا أكان أم غير ذلك، أن يرشد الى كيفية استخدام ميزان الحرارة.

هذا الأمر على بساطته، بالغ الأهمية. فبقياس درجة حرارة طفل صغير باستخدام مقياس الحرارة، يمكن الجزم بما اذا كان مصابا بحمى أم لا، كما يمكن تحديد مدى خطورة الحالة ومدى الاستعجال الذي يستدعى به الطبيب.

من الأخطاء الشائعة أيضا أن كثيرا من الآباء يلجأ الى لف الصغير في عدد من الأغطية الثقيلة، بمجرد اكتشاف انه محموم! والحمى تحتاج الى ما يخفضها وليس الى ما يزيدها. والغطاء الثقيل يرفع درجة حرارة الجسم ولا يقللها. والواجب في هذه الحالة استخدام كمادات الثلج، أو الماء البارد إذا لم يتوفر الثلج، على الرأس والأطراف.

أما أفدح الأخطاء التي يرتكبها الآباء في حق طفل محموم فهو إرجاء المراجعة الطبية بدعوى أن الصغير «حالا يروق» أو بسبب انشغال الوالدين بالعمل خارج البيت، أو لغير ذلك من الأسباب! فبعض أنواع الحمى، يمكن ان يعصف بحياة الصغير في غضون ساعات لا تتجاوز الستة! وان كتبت النجاة للصغير، ففي مقابل ثمن فادح يدفعه نتيجة تجاهل أبويه للمرض! مثال ذلك، «الحمى الشوكية — Acute Meningitis»، التي تؤدي الى وفاة سريعة، أو الى اصابة المريض بالتخلف العقلي فيما بقي له من عمر! وسبب الحمى الشوكية هو وصول ميكروب الى «السحايا» — وهي الأغشية المحيطة بالمخ. وما لم يكن هناك علاج سريع، فإن الالتهاب يمتد من الأغشية الى المخ، مما يترتب عليه إتلاف بعض مناطق المخ، الأمر الذي يظهر في صورة تخلف عقلي.

ولعل ما هو أفدح من تأجيل المراجعة الطبية هو تحويل الصغير الى حقل تجارب لوصفات غير طبية! ولسنا ننكر أن بعض هذه الوصفات يكون مجديا. بيد أن الثمن الذي يمكن أن يدفعه الصغير في حال فشل احدى «الوصفات المجربة» يكون باهظا حقيقة بحيث يجب أن يكون رادعا كافيا عن هذا الأسلوب العقيم في العلاج. وكم من أطفال فقدوا حاستي السمع والإبصار من جراء تجارب الآباء عليهم.

ولكي ينجو الآباء من عذاب الضمير، فيجب ألا يتهاونوا في طلب معونة طبية لصغيرهم المحموم. ولكي يرحم الآباء صغارهم من التشويه الخلقي (غير المتعمد) عليهم الا يعطوا لأنفسهم حق تشخيص المرض وعلاجه، حتى وإن كان المرض وعلاجه معروفا جيدا لديهم، نتيجة اصابة الطفل نفسه أو أطفال غيره في الأسرة، بالمرض ذاته في السابق.

أما أخطاء الأطباء، فأحيانا لا تقل فداحة عن أخطاء الآباء! وأكثر أخطاء الأطباء شيوعا، فيما يتعلق بمشكلة حميات الأطفال، هو إخفاق الطبيب في تنبيه الوالدين الى ضرورة عزل الطفل المريض عن باقي أقرانه، في الفترة التي يكون فيها المريض معديا. وهي الفترة التي يمكن ان ينتقل فيها المرض من الطفل المريض الى غير المرضى حوله. ويترتب على ذلك انتقال العدوى الى باقي أطفال الأسرة، واحدا إثر آخر، مما يضع عبئا إضافيا على عاتق الأسرة — وهو عبء يمكن تفاديه أصلا! فمثلا يكون الطفل المصاب بالحصبة معديا لمدة أسبوع من وقت ظهور الطفح على جسمه. ويكون المصاب بالنكاف معديا من وقت ظهور الورم الى وقت اختفائه حيث تتورم الغدة النكفية على جانبي الوجه في مرض النكاف. وجميع حميات الأطفال التي سلف ذكرها معدية.

ومن أخطاء الأطباء الشائعة كذلك، إغفال شرح طبيعة المرض للوالدين، وطرق الوقاية الممكنة منه. وهذه الطريقة في العلاج تحتاج الى وقت من جانب الطبيب، ولكنه وقت يستثمر بطريقة صحيحة. ففضلا عن أن شرح طبيعة المرض للوالدين يفيد في تلطيف وكبح حدة مخاوفهما على الصغير، فإن هذا الشرح يعتبر وسيلة مثلى لنشر الوعي الصحي بين الناس. وبدون وعي صحي بين جماهير الناس، لن يمكن استئصال شأفة المرض في يوم من الأيام.

ومن أخطاء الأطباء الفادحة، ما يتمثل أحيانا في إغفال فحص مناطق من الجسم، بمجرد تشخيص المرض أو الاصابة الأولية. مثال ذلك، إغفال فحص الأذنين عند طفل مصاب بالحصبة، بمجرد أن يرى الطبيب الطفح المميز للمرض على جسم الطفل! وقد يكون في الأذنين التهاب حاد، ولكن حالة الهزال العامة عند الطفل تصرف اهتمامه عن الألم في أذنيه. وتكون الخاتمة مأساوية حين يشفى الطفل من الحصبة ليفاجأ بأنه مصاب بالصمم! ومثل ذلك يقال عن التهاب الغدة النكفية، الذي يمكن أن يؤدي الى التهاب الخصيتين، وبالتالي إصابة الطفل بالعقم في مستقبل عمره!

وليس الفحص المتأني الدقيق والأمين ضرورة فحسب، بل يجب متابعة المريض في أيام المرض، لتقييم أي علامات مرضية جديدة، أو لتغيير خطة العلاج حيثما لزم الأمر، الى أن يستيقن الطبيب من شفاء المريض تماما. مثال ذلك، الاصابة بفيروس «شلل الأطفال — Poliomyelitis». إذ تبدأ الاصابة المرضية بصورة تشبه الاصابة بالانفلونزا، وأحيانا بصورة تشبه نزلة معوية معتدلة. وبعد خفوت الاعراض بأسبوعين أو ثلاثة تظهر أعراض الشلل على الطفل!□

صفحة في اللغة:

أخطاء لغوية تتعلق بالحروف

اعداد: نجيب محمد القضيب/هيئة التحرير

* نحن أهل هذا الزمان مطالبون — اليوم — بالتنبيه الى بعض الأخطاء اللغوية لتحاشي الوقوع فيها ولتصحيح بعض ما أفسده غيرنا، وهدفنا من وراء ذلك التنبيه وليس تتبع أخطاء الآخرين ومن هذه الأخطاء الشائعة قولهم:

فعل الشيء رغم أنف فلان. والصواب: فعل الشيء على رغم فلان وبرغم أنفه.

وقد ورد في لسان العرب «على رغمه: على غضبه ومساءته» وهذا هو المعنى المراد. وقد علل الراحل الدكتور مصطفى جواد هذا في كتابه «قل ولا تقل» بقوله: «وذلك لأن نصب كلمة (رغم) ليس له وجه من النحو وقبول عند ارادة هذا المعنى بالعبارة المذكورة. ذلك انه لم يفعل الفعل لارغامه خاصة، بل فعله لمنفعة يريدها في حال عدم الرضا من خصمه».

* ومن الأخطاء الشائعة في الحروف قولهم: **وزع الجوائز على الفائزين. والصواب: وزع بينهم وفيهم الجوائز**. وقد ورد في لسان العرب والتوزيع: القسمة والتفريق، ووزع الشيء: قسمه وفرقه، وتوزعوه فيما بينهم، أي تقسموه». وقد اورد الراحل الدكتور مصطفى جواد في كتابه السالف الذكر في هذا الشأن: «فاذا استعملنا حرف الجر (على) مع (وزع) وهي للاذى والتسلط والتكليف والاستعلاء كان معنى «وزع عليهم» جعل عليهم ضريبة واتاوة وتكليفا وأوجب عليهم دفعه اليه».

* ومن الأخطاء الشائعة أيضا قولهم: **تخرج من الكلية الفلانية. والصواب: تخرج في الكلية الفلانية**. ومعنى تخرج هنا «تعلم» و «تأدب» ولو جئنا بهذه الأفعال لقلنا «تعلم فلان في الكلية وتأدب فيها» وقد ورد في المعجم الوسيط «وخرج في العلم أو الصناعة: نبغ فيهما».

ونلاحظ أن الفرق بين الجملة الأولى والثانية كبير حيث يفهم من الجملة الأولى الخروج الذي هو عكس الدخول.

* ومن أخطاء الحروف الشائعة قولهم «**خرج على القانون**» والصواب «**خرج عن القانون**» وفي هذا التعبير نود أن نتعرف الى رأي الاستاذ محمد العدناني، وخلافه مع الراحل الدكتور مصطفى جواد. فالعدناني يقول في كتابه «معجم الأخطاء الشائعة» ويخطىء الدكتور مصطفى جواد من يقول (**خرج فلان على القانون**) ويقول ان الصواب (**خرج عن القانون**) لأن الخروج عن الشيء يستلزم الابتعاد عنه. وحرف الجر (عن) هو للمجاوزة والابتعاد، أما حرف الجر (على) فيستعمل في مثل خرج فلان على الدولة، أي ثار عليها ووثب باصحابها».

ويعلل العدناني ذلك بقوله «يبيح لنا المجاز ان نقول، خرج على القانون، لأن القانون تصنعه الدولة، وهو مسبب عنها، فهو مجاز مرسل علاقته المسببية كقوله تعالى في آية/١٣ من سورة غافر، ﴿**وينزل لكم من السماء رزقا**﴾ فالرزق لا ينزل من السماء، ولكن الذي ينزل المطر. وينشأ منه النبات، الذي منه طعامنا ورزقنا. فالرزق مسبب عن المطر، وهو مجاز مرسل علاقته المسببية، مثل علاقة القانون الذي تضعه الدولة ويكون مسببا عنها. لذا يصح أن نقول: خرج عن وعلى القانون».

واعتقد أن الاستاذ العدناني قد ذهب بعيدا. ولم يكن مصيبا في رأيه هذا لكونه خلط بين الأساليب البلاغية والمعنى الذي يفهم من سياق الجملة من خلال كلماتها.

* ومن الأخطاء الشائعة المتعلقة في هذا المجال قولهم: **نذيع عليكم نشرة الأخبار والصواب: فيكم أو بينكم**. ويقول الراحل الدكتور مصطفى جواد في هذا الصدد «لأن على في العربية تفيد الاستعلاء والتسلط والأذى في الأعم الأغلب، فمعنى «نذيع عليكم» هو ننشر اخبارا سيئة، واوصافا قبيحة لكم، أو ما تكرهون نشره من احوالكم». ويقول صاحب اللسان «الذيع: ان يشيع الأمر. يقال: اذعناه فذاع، واذعت الأمر، واذاعت به، واذعت السر اذاعة اذا افشيته واظهرته. قال ابو اسحق ومعنى اذاعوا به أي أظهروه ونادوا به في الناس، وانشد:

اذاع به في الناس حتى كأنه
بعلياء نار اوقدت بثقوب □

مع العربية في مسارها التاريخي

اللغة العربية في عصر التحدي

بقلم: د. نقولا زيادة / بيروت

نحن في مطلع القرن التاسع عشر. محمد علي يتولى الأمر في مصر، ويريد أن يجعل من مصر دولة قوية. ولذلك فهو بحاجة الى خبراء. وكان الخبراء الأوّل أجانب — في الطب والادارة والري والتعليم وما الى ذلك. احتاجهم للتنظيم والتخطيط والتنفيذ لأنه لم يجد في مصر حاجته. ولكنه ادرك ان استيراد الخبرة والمعرفة والعلم لن يكفي مصر، وسيظل هؤلاء الخبراء أجانب عن البلد، كما أن العلم والمعرفة والخبرة نفسها ستظل غريبة عن مصر. لذلك تقدم خطوة جريئة — جريئة بالنسبة الى عصره — في سبيل «تمصير» العلم والمعرفة والخبرة. فاختار، في فترة حكمه، نحو اربعمائة مصري وأرسلهم الى أوربا ليجمعوا ما استطاعوا من علم ومعرفة وخبرة ولينقلوا ذلك الى مصر. وبذلك فقد مَصَّر المعرفة بقدر ما كانت الأحوال تساعده. وهؤلاء المصريون حملوا معهم الكثير مما كان عند الغرب من طب وطبيعة ورياضيات وجغرافية وعلوم عسكرية لما عادوا الى بلادهم وتولوا العمل في سبيل مصر.

وفتح محمد علي المدارس ليبسر للمصريين التعليم ولو أن ذلك لم يتح لجميعهم، فبدأ بالمدارس الابتدائية والثانوية، لكنه لم يلبث ان فتح مدرسة للطب في القصر العيني (سنة ١٨٢٧م)، وهي الآن كلية الطب في جامعة القاهرة، وبذلك أتاح لمن كان له استعداد ان يدرس الطب في مصر، على أيدي اساتذة أجانب ومصريين، كي يتولى مهمة التطبيب فيما بعد. ومع أن محمد علي لم يفتح مدرسة للهندسة فقد أفاد من الذين درسوا هذا الفن في اوربا. وهكذا دواليك.

وأنشأ مطبعة بولاق التي أخذت على عاتقها أول الأمر نشر الأشياء الرسمية، لكنها لم تلبث أن نشرت أمهات الكتب القديمة العربية في الأدب والتاريخ والفقه، مما كان له فيما بعد أثر أي أثر، اذ قد سد حاجة كبيرة.

وفي الوقت الذي كان يفتح فيه المدارس ويبعث فيه البعوث العلمية الى الخارج، كان قطر عربي آخر يختبر الشيء الكثير من العلم الغربي والمعرفة الغربية مثل لبنان. صحيح ان هذه المدرسة لم يدرس فيها العلم أو الطب، ولكنها كانت معهدا أتاح لطلابه الاتصال بالغرب في ناحية واحدة من نواحي المعرفة.

على أنه في القرن التاسع عشر بدأت البعثات التبشيرية عملها بانشاء المدارس في لبنان، بعضها للانجيليين أي البروتستانت وبعضها للكاثوليك. واستمر هذا العمل مدة طويلة وانتهى، بالنسبة الى العمل الانجيلي، بانشاء الكلية السورية الانجيلية، (وهي الجامعة الاميركية الآن) وبالنسبة الى العمل الكاثوليكي، بانشاء كلية القديس يوسف (وهي الجامعة اليسوعية).

ومع أهمية هذا العمل من الناحية التعليمية، فلعل أثره الهام هو حمل الطوائف المختلفة في لبنان على إنشاء مدارسها الخاصة. فأسست الطائفة المارونية مدرسة الحكمة، وفتح

الروم الكاثوليك الكلية البطريركية، وكان للروم الارثوذكس زهرة الاحسان والأقمار الثلاثة، كما أن جمعية المقاصد الاسلامية أنشأت مدارسها، وأسست الكلية الداودية والكلية العاملية فيما بعد.

وكثر التنقل بين أقطار الشرق العربي واوربا، كما كثر تبادل السفراء بين الدولة العثمانية واوربا. وكان من نتيجة ذلك ان اطلع كثيرون من رجال الحل والعقد على شؤون الغرب وحضارته وأخذوا يتساءلون عن سر هذا التقدم!

وأنشئت الصحف رسمية أولا مثل الوقائع المصرية في القاهرة، ثم خاصة مثل الأهرام والمقطم والمؤيد وما اليها في مصر. كما عرف لبنان حديثة الأخبار وغيرها. وجاءت الخطوة التالية طبيعية وهي إنشاء المجلات كالمقتطف والهلال والجنان والضياء.

ولم يقتصر الأمر على المشارقة، فإن بعض مناطق المغرب كان لها مساهمة في هذه القضية. فالمكتب العسكري في باردو بتونس، والرائد التونسي — أول صحيفة تونسية، والمدرسة الصادقية، هذه وغيرها كانت خطوات مشابهة لما تم في مصر في واقع الأمر ولو أنها تأخرت عنها قليلا. فالمكتب العسكري أنشىء سنة ١٨٤٠ والرائد أسست سنة ١٨٦١ والمدرسة الصادقية تم انشاؤها سنة ١٨٧٦. ومع ان الفرنسيين لما احتلوا الجزائر، بدءا من سنة ١٨٣٠، فتحوا فيها مدارس ونشروا صحفا، فإنها كانت لمصلحة المحتلين الفرنسيين لا لمصلحة أهل البلد. ومن هنا لن نتحدث عنها الآن.

إنشاء المدارس وارسال البعثات وكثرة الاسفار وتأسيس الصحف والمجلات اقتضت أن يكون ثمة شيء يعلم ويتعلم ويكتب عنه. وما كانت هذه المؤسسات المختلفة لتكتفي بما كان العرب قد انتجوه في القرن الثامن عشر وما قبله بقليل. ذلك بأن كل هذه المؤسسات إنما قامت لأنه كان ثمة حاجة لشيء جديد. فلو لم تكن ثمة حاجة للطب لما أنشأ محمد علي القصر العيني ولما فتحت كلية الطب في الجامعة الاميركية في بيروت. ولو لم تكن ثمة حاجة لما أنشئت في مصر، فيما بعد، كلية للهندسة. ولو أن المعلمين كانوا موجودين لما إحتاجت مصر الى دار العلوم في أواخر القرن الماضي. ولو أن المعاهد التي كانت موجودة كانت تزود المحاكم بحاجتها لما فتحت مدرسة القضاء الشرعي بالقاهرة. وهكذا دواليك.

وهذه الحاجات المتنوعة التي اقتضت صورة جديدة للمعرفة والعلم تطلبت، بطبيعة الحال، أن يؤتى لهذه المعرفة وهذا العلم من مصادر لم تكن معروفة للعرب في ذلك الوقت. ومن هنا كان لا بد من أن تترجم الكتب والمقالات والبحوث عن اللغات الاوربية قبل أن توصل الى الطلاب والقراء.

وهنا يبرز الدور الذي قام به أولئك النقلة والمترجمون واضحا. فرفاعة الطهطاوي، وهو في نظرنا شيخ المترجمين في القرن التاسع عشر، ينقل الى العربية كتبا في الجغرافية والأساطير والتاريخ والدستور الفرنسي. وأساتذة الطب في القصر العيني ينقلون معرفتهم الى طلابهم باللغة العربية. وفي الجامعة الاميركية ببيروت، التي كانت يومها تسمى الكلية السورية الانجيلية، تتخذ العربية لغة التعليم في الطب والعلوم الأخرى والانسانيات. ولا بد لذلك من كتب. وهذا «فانديك»، احد أساتذة الطب فيها يضع كتابا في الباثولوجيا باللغة العربية.

والذي نفيده من هذه النظرة السريعة المقتضبة جدا، انه قد عاد الى العالم العربي نشاط في جوانب حياته الفكرية — علما وطبا وأدبا وفلسفة، ودخل عنصر التحدي في هذا كله. التحدي كان موجها نحو اللغة العربية. فماذا كان موقفها؟

تحدى العصر أهل اللغة فاستجابوا الى ما فيه من علم ومعرفة، وكانت الاستجابة في اللغة العربية بناءة. فلم تقصر اللغة. اخرجت كنوزها لأن أهلها احتاجوا الى هذه الكنوز. وكأن اللغة كانت تتمثل ببيت الشعر المشهور لحافظ ابراهيم:

أنا البحـر في احشائـه الدر كامن
فهل سألـوا الغواص عـن صدفاتـي؟

نعم غاص الناس يومها فاستخرجوا من بطون العربية ما فيها من جواهر.

المترجمين والمؤلفين والكتاب العرب جاءتهم في القرن التاسع عشر، وهو المعروف بعصر النهضة، أشياء جديدة من الغرب ارادوا أن يعبروا عنها باللغة العربية، فاستنجدوا بها فأنجدتهم. لقد نشط أهلها فنشطت هي تبعا لذلك. كان العرب يومها في موقف التحدي بالنسبة الى الآراء والمعارف الحديثة، وكانت اللغة كذلك، فاستجابت، كما استجابت في القرون الأولى التي تبعت ظهور الاسلام. فمن حيث النوع لم يكن فرق بين ما احتاجت العربية التعبير عنه هناك وهنا.

وثاني هذه الأمور أن علماء القرن التاسع عشر كانوا قد توصلوا الى نظريات سياسية واجتماعية لم تكن قد درست من قبل، أو لعلها لم تنتظم طريقة معينة. فالنظم السياسية الديمقراطية كانت شيئا جديدا بالنسبة الى عالم العرب. والمذاهب الاجتماعية كانت أيضا فتحا جديدا. وهي في الواقع كانت فتحا جديدا بالنسبة الى الغرب نفسه.

والأمر الثالث هو أن أهل بعض دول الغرب كانوا حريصين على المواطنة باعتبار أنها أمر ألِفوه وادركوه عمليا. أما بالنسبة الى العرب فقد كان التحدث فيه وعته يقتضي النظر والامعان.

وأخيرا فقد كان من الضروري أن يحدد الباحثون معنى القومية، اذا كان ذلك ممكنا. وعلى كل فالقومية كانت واحدة

من الأفكار التي كانت تشغل بال الغرب، وكانت تزحف نحو العالم العربي والأقطار المجاورة له زحفا منتظما.

فكان معنى هذا أن توضع كلمات ذات معنى جديد، ولو أن الكلمات كانت قديمة، وقد ندب قوم أنفسهم لذلك وقاموا بالعمل قياما موفقا. ولسنا بحاجة الى الدخول بالتفاصيل ولكن رجلا مثل رفاعة الطهطاوي وحده كان مسؤولا عن نحو خمسين كلمة وضع لها معاني جديدة محددة في ترجماته وتآليفه. و «المقتطف» نقل مئات من المصطلحات العلمية عن اللغة الانجليزية؛ وهناك فئة كثيرة من أصحاب العمل نفسه مثل الذين وضعوا كتبا في تاريخ الانسان الطبيعي أو كتبوا مقالات فيه مثل «شبلي شميل»، أو ترجموا «دارون» مثل اسماعيل مظهر. ونحن نعرف أن بعض هذه الأسماء التي ذكرناها عاش أصحابها في القرن العشرين، لكنهم كانوا في أعمالهم تتمة للعمل الذي بدأ في عصر النهضة.

ذلك كله يجب أن نذكر أمرا يتعلق باللغة العربية نفسها والمترجمين الذين عملوا على النقل. ففي القرون الأولى من العصر الاسلامي كان أولئك الذين عملوا في شؤون الفلسفة والطب والفلك والرياضيات يطوعون اللغة لقبول شيء جديد بالمرة. واللغة التي كان عليهم أن يقوموا بتطويعها كانت من قبل لغة أدب وشعر، محدودة في آفاقها وإن لم تكن محدودة في إمكاناتها. لكن هذه الامكانات كان لا بد من أن تكتشف من الأصل وأن تفجر من نقطة الابتداء. ولذلك فالعمل كان صعبا ولا شك. أما في القرن التاسع عشر فقد كان العمل، نسبيا، أيسر. فاللغة كانت قد مرنت على التحدي والاستجابة للتحدي، وكانت قد ألفت التفجير الداخلي، وكانت قد عرفت التوليد اللفظي. ولكن مشكلة اللغة في القرن التاسع عشر، وهي مشكلتها اليوم أيضا، تكمن في ابنائها. ففي القرون الأولى كان أبناء اللغة يتحلون بالشجاعة التي تمكنهم من القيام بعملية التطويع. أما في القرن التاسع عشر فقد كان كثيرون من الناطقين بالعربية يخشون من الآراء ونقلها.

ونمثل على ذلك بالاشارة الى بعض الألفاظ التي كان لا بد لها من أن تكتسب محتوى جديدا قبل أن تصبح صالحة للاستعمال. ومنها كلمة «الحرية». فهذه ليست جديدة على العربية. لكنها كانت ترد من قبل في نقاش المتكلمين وجدلهم حول حرية الانسان الدينية بالنسبة الى القدر والجبر. أما معناها الحديث من حيث علاقة الفرد بالمجتمع والدولة من الناحية المدنية العلمانية فأمر كان جديدا على المجتمع. وكان لا بد من تجديد معنى الكلمة قبل استعمالها في الترجمة أو التأليف. ومنها كلمة «المواطنة» التي يرجع الفضل الى صوغها واستعمالها الى الطهطاوي.

وهناك كلمات كانت جديدة على العرب من الناحية السياسية لأنه لم تكن قد قامت حاجة لها من قبل؛ وهي الاستقلال. فالأجزاء من العالم العربي التي كانت تخضع لحكم اجنبي هي التي كانت أكثر عناية واهتماما بالاستقلال ومدلول الكلمة.

ولعل الكلمة التي دخلت العربية من الباب الواسع في القرن التاسع عشر، وخاصة في نصفه الثاني، كانت كلمة الدستور، بمعناها السياسي القانوني الذي يقصد به تحديد صلاحيات صاحب السلطة والحكم. كما ان «القومية»، على أنها مشتقة من كلمة قوم القديمة، كان لا بد لها من توضيح. وهي كلمة لا تزال غير موضحة الى يوم الناس هذا.

وكانت تجارب العالم وخبراته قد اتسعت عما كانت عليه في أيام اليونان، ولذلك كانت مجالات التفكير الذي كان على اللغة العربية ان تقتحمها واسعة كثيرة، وكان الطريق الذي ستسلكه وعراً، كما كان المترجمون والمؤلفون أكبر عددا من ذي قبل وأكثر انتشارا وتوزعا عما كانوا عليه في الأزمان الغابرة. ومع ذلك فقد تصدوا للعمل ونجحوا فيه نجاحا كبيرا. وترجموا وألفوا الكثير من الكتب والأكثر من المقالات.

نخلص اليه من هذا الذي عرضناه هو أن اللغة بأهلها. فكل مرة كان العرب مستعدين للعمل، وكان ثمة تحد لهم يتصدون له، كانت اللغة العربية تستجيب لهذا لتحدي.

في أنحاء العالم العربي كله، من المحيط الى الخليج، تصعد الشكوى بأن اللغة العربية لا تستطيع التعبير عن حاجات العصر الحاضر. هذه الشكوى يجأر بها المشتغلون بعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم السياسة وعلم الاقتصاد وغيرها. وقد يجأر بها حتى بعض الأدباء، ولكن الصوت الذي يرتفع بهذه الشكوى أكثر من غيره هو صوت العاملين في حقول العلوم البحتة والتطبيقية والتكنولوجية. فهل ثمة مبرر لذلك؟

لا شك أن آفاق المعرفة العلمية والتكنولوجية قد اتسعت في العقود الأخيرة على شكل لم يعرفه العالم في تاريخه الطويل. كما أنها تشعبت بشكل يكاد يسبق العقل البشري في جريانه وركضه. فهل هذا هو السبب الأصلي لشكوى الشاكين وبكاء الباكين؟

إذا نحن حاولنا أن نتعرف إلى أسباب هذه الشكوى وجدناها تكمن في الأمور التالية:

أولا: إنعدام المعاجم الدقيقة في الأمور العلمية التي تيسر للناس نقل الأفكار والمعلومات الى اللغة العربية.

ثانيا: افتقادنا الى المعاجم العربية التي تيسر للكتاب استعمال الألفاظ العربية نفسها بحيث يكون المعنى دقيقا أيضا.

ثالثا: إن تعليم اللغة العربية في مدارسنا الابتدائية والثانوية ناقص، بحيث أن طلابنا لا يفيدون من الساعات الطويلة التي يقضونها في تعلم اللغة العربية الفائدة المرجوة، والتي تساعدهم في استعمال اللغة استعمالا صحيحا.

رابعا: ندرة الكتب العلمية التي تنقل للقراء المعرفة

العلمية مبسطة بحيث يألفون القراءة العلمية تدريجياً.

ونحن إذا ألقينا نظرة على الجامعات المختلفة في العالم العربي فإننا نجد أن أكثرها يستعمل اللغة العربية للتدريس في فروع العلوم الاجتماعية والانسانية بسهولة ويسر، مما يدل على أن شكوى الفئة التي تختص بهذه الفروع لا أصل لها البتة. وإذن فالقضية ليست قضية فشل اللغة العربية بقدر ما هي قضية جهل الكتاب في هذه الموضوعات، بالأدوات اللازمة للكتابة فيها.

أما إذا إنتقلنا الى ميادين العلوم البحتة والتطبيقية والتكنولوجية فإننا نجد أن القضية تختلف. فهذه العلوم تتسع وتتمدد يوما بعد يوم. وقد تصدى لوضع مصطلحات لهذه العلوم ، الى الآن، فئات من العرب يجيدون اللغة لكنهم لا يعرفون الموضوعات العلمية. هذا شأن الكثير من مجامعنا اللغوية. ولذلك قصرت هذه المؤسسات في القيام بواجبها فسبقها العلم والطب والهندسة وما الى ذلك.

يضاف الى هذا أن الكثيرين من القيمين على هذه القضايا هم من المتزمتين لغويا، المتقعرين في استعمال الألفاظ العلمية، بحيث يصرون على وجوب الحصول على كلمات عربية النجار لكل مصطلح علمي. وكم صرف هؤلاء من الوقت للحصول على كلمة تقابل التلفون، وهو أمر من أبسط الأمور، لأنهم لم يرضوا بالكلمة الاجنبية، كأن هذه الكلمة، على يسرها وسهولتها واستعدادها لأن يشتق منها فعل تلفن، تدنس العربية فيما لو أضيفت اليها. وكانت النتيجة أنهم «هتفوا» و «ارززوا» وهم في واقع الأمر يتلفنون كل يوم. فإذا كان هذا شأن الكلمة البسيطة، فما هو شأنهم مع الكلمات المتعلقة بالمعدات الالكترونية مثلا؟

والناس ينقلون الكلمات يوميا الى العربية بصيغتها الاصلية بعد تهذيبها ويستعملونها، فيما يشتد الجدل بين أهل اللغة المتزمتين حول كلمة قد تدل على المعنى وقد لا تدل.

وبين هذه التشدقات يضيع الوقت ويهرب الزمن وتزداد الشكوى من عجز اللغة العربية عن التعبير عن حاجات العصر. ولو أنهم عقلوا لتعلموا من الأجداد ولجأوا الى ما كان هؤلاء يفعلون عندما كانت تعرض لهم صعوبة. فالقدامى لم يتورعوا، في الفلسفة والعلم ، عن استعمال كلمة «الاسطقس» بمعنى عنصر الجسم أو أصغر الأشياء من جملة الجسم؛ وهي كلمة يونانية كسوها ثوبا عربيا. ومثل هذه في مؤلفات العرب القدامى كثير.

والذي نود أن نقوله هو أن اللغة العربية ليست من الضعف بالقدر الذي يصورها الشاكون المتذمرون. فهي لغة تتسع بالنحت والاشتقاق وما اليهما الى الكثير من التنويع، شريطة أن نضيف الى ذلك تعريب الألفاظ التي لا سبيل الى ترجمتها ترجمة دقيقة.

وبقدر ما يمكن لأهل اللغة العربية أن يوسعوا آفاقهم وصدورهم، تسير اللغة معهم معبرة عما يدور في هذه الآفاق ويجول في هذه الصدور. فاللغة، كما قلنا أكثر من مرة، هي صورة أبنائها ومرآة مقدرتهم وقدراتهم.

نود أن نشير هنا الى العمل الذي يقوم به مكتب تنسيق التعريب في الرباط، وهو من مؤسسات جامعة الدول العربية، فقد نظم الى الآن مئات من المصطلحات العلمية، جمعها من المشتغلين بهذه العلوم وناقش فيها وتحدث الى العاملين في سبيلها، كي يضع بين أيدي المشتغلين الناشئين معاجم علمية صحيحة.

ولعل مما آذى التعبير العلمي بالعربية إنفراد الأشخاص بمحاولات لوضع المعاجم وترجمة المصطلحات والمفردات عندما ينقلون من لغة اوربية الى اللغة العربية. وبذلك تصبح المرادفات للكلمة الاوربية الواحدة كثيرة. فلا يفهم ابن المشرق ما الذي يريده ابن المغرب من أقواله وكلامه. وعندئذ يتهم اللغة نفسها بالتقصير، والمقصر هو العامل في حقل العلم واللغة.

فهل من سبيل لحل هذه المشاكل؟

إذا عدنا الى ما قلناه في مستهل هذا المقال، فإننا نقترح الحلول الجذرية التالية:

أولا: إصلاح تعليم العربية بحيث تصبح لغة في متناول استعمال الناس بعد أن ينهوا تعليمهم الثانوي. فلا يزورون اذا هم وقع في ايديهم كتاب بالعربية يبحث أيا من الموضوعات.

ثانيا: أن يقبل كبار العلماء المتمكنون من أبحاثهم على وضع كتب مبسطة في العلوم كي يألف الناس قراءة العلم بالعربية.

ثالثا: أن يوضع بين أيدي الناس معجم عربي دقيق في تحديد ألفاظه، واضح فيما يرمي اليه، بحيث لا يمج الطالب استعمال المعجم لأنه لا يسد حاجته ولا يرشده الى ضالته.

وأخيرا أن يتم مكتب تنسيق التعريب العمل الذي قام به فيهيء للناس معجما علميا يمكن الكاتب من العثور على اللفظ والمصطلح الذي يريده.

هذه هي الأمور العلمية الأساسية. أما اللغة ففيها الطاقة اللازمة للتفجر والتفجير كي تتسع للتعبير عن حاجات العصر. والذي يحتاج الى تفجير اولا هم الذين تزمتوا في اللغة كثيرا بحيث حبسوها في قمقم ضيق صغير.

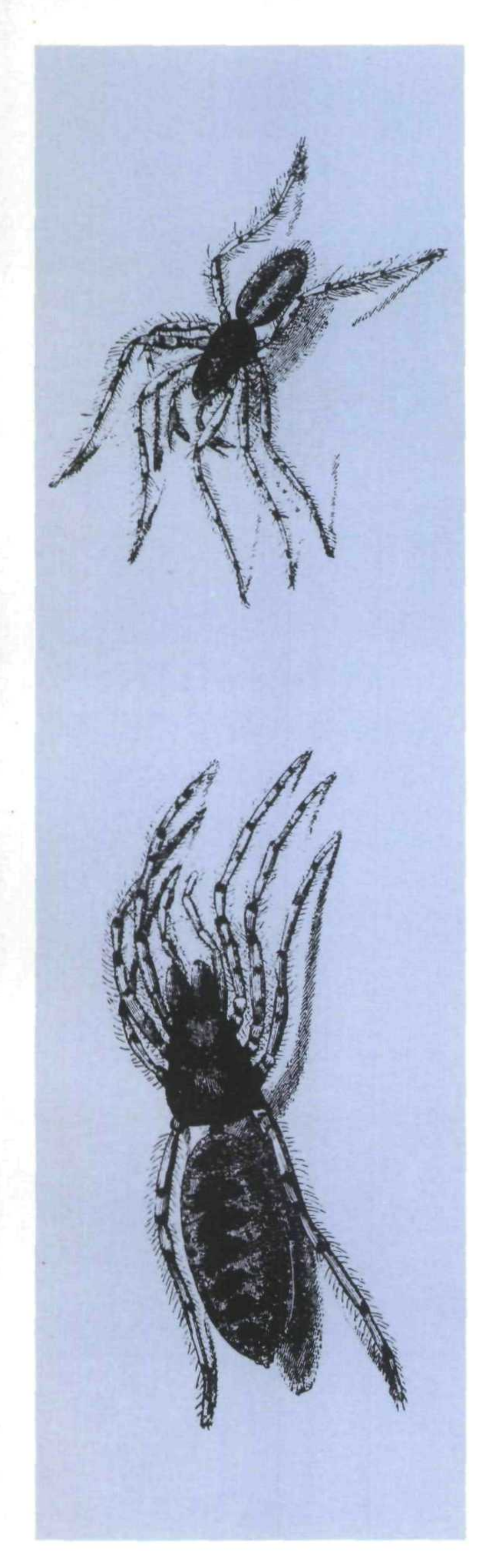
ونحن إذا نظرنا الى بعض الشعوب التي كانت لغتها، الى حول مئة عام أو يزيد قليلا، تكاد تكون ميتة، فإننا نجدها اليوم تتسع لكل شيء. وليست تلك اللغة بأغنى من لغتنا أو أوسع ولا أعمق منها. ولكن الذين اهتموا بها كانوا أوسع تفكيرا وأعمق إهتماما بلغتهم.

واخيراً لنا دعوة الى المشتغلين باللغة وتعليمها: جردوا الناس من سلاح تزويق اللغة لاخفاء قلة البضاعة. فعندما تكون ثمة بضاعة جيدة لا تحتاج الى الكثير من التزويق لكي ينفق سوقها. فالدقة في اللغة هي الأساس □



غرائب وعجائب في عالم العناكب

بقلم: الأستاذ محمد عبد القادر الفقي/الكويت



الدنيا مليئة بالغرائب والعجائب... البعض منها طريف ظريف، والبعض منها مثير مضحك... والبعض الآخر يدفع الى إعمال الفكر في خلق الله والتأمل في بديع صنعه. وعالم العناكب عالم مثير وغريب.. فهذه المخلوقات التي ينفر الانسان منها ويشمئز من شكلها المخيف البشع تتصف بصفات عجيبة.. إنها تعيش في حالة حرب دائمة، وجميع أفرادها مفترس، وشراسة العناكب في العدوان لا حدود لها، فهي لا تكتفي بافتراس الحشرات التي تتخذها غذاء لها، وإنما تفترس إناثها أيضا ذكورها.. الويل والثبور للغافل منها!

وقد لفت عالم العناكب انتباه القدامى، فضربوا به المثل في إجادة الغزل. وربما تعلم الانسان من هذه المخلوقات تكنولوجيا النسيج. كما ورد ذكر العنكبوت في القرآن الكريم، بل وسميت احدى سوره باسمها. لعل ذلك دعوة من الخالق ــ جلّت قدرته ــ لدراستها والاهتمام بها. فالعنكبوت رغم أنها تعيش في بيت من الحرير، إلا أنه بيت واهٍ، تمزقه الرياح، فضلا عن «الصراعات الداخلية» التي تفتك بساكنيه، حيث الأمان مفقود، ورحى الحرب الضروس تقتل الكثير في هذا البيت، خاصة إبان موسم التكاثر. قال تعالى:

﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ العنكبوت/ الآية ٤١.

ومن أعلام القدامى الذين اهتموا بدراسة العناكب للوقوف على عجائبها وغرائبها: العالم العربي الشهير ابو عثمان الجاحظ. ويحفل كتابه «الحيوان» بملاحظات علمية دقيقة وطريفة عنها. فهو يتحدث عن نسيج العنكبوت وعن الغرض منه، فيذكر ان العناكب لا تنسج نسيجها إلا في الأماكن الهادئة والمظلمة غالبا. ويقول ان هناك نوعا من العناكب دقيق الصنعة، حيث يصعد بيته ويمد الشعر تجاه العروق والاوتاد، ثم يسدي من الوسط، ثم يهيىء اللحمة (والسداة واللحمة من مصطلحات النسيج)، كما يهيىء مصيدته في الوسط، فاذا وقع عليها الذباب، وتحرك هنا وهناك فوق نسيجها، تعلق فيه ونشب في خيوطه، وحينئذ، يتركه العنكبوت على حاله، حتى يحس بالفشل واليأس، فإذا وثق بوهنه وضعفه، قام فجذبه وأدخله الى خزانته، أما إذا كان جائعا، فإنه يمتص دمه ورطوبته، ويرمي به بعد ذلك، ثم يقوم باصلاح ما أفسده ذلك الصيد في نسيجه. وفي أغلب الأحيان، يقع معظم فرائس العنكبوت عند المغرب، وقت غروب الشمس وبعد مغيبها.

ومن العناكب ما يلجأ الى الحيلة في الصيد حيث لاحظ الجاحظ ذلك ووصفه لنا في قالب بليغ قرر فيه أن من العناكب جنسا يصيد الذباب صيد الفهود، والعرب يسمونه (الليث) تشبيها له بالأسد. وهذا النوع حين يرى الذباب يلصق بالأرض وتسكن أطرافه، حتى اذا واتته الفرصة، وثب على فريسته، وهو حين يثب لا يخطىء. ولذلك يرى الجاحظ ان هذا النوع من العناكب يعد من أشد أعداء الذباب.

وبعض أنواع العناكب ينسج شركه في الأرض والصخور، ويجعل أطراف هذا النسيج من الداخل حتى اذا وقعت عليه حشرة كالذباب أو ما شابه ذلك، أسرعت العنكبوت فأكلته.

ومن الملاحظات الطريفة التي أوردها الجاحظ في كتاب «الحيوان» عن العناكب ما ذكره من أن ولد العنكبوت يقوم بالنسج ساعة يولد، وهو في استعداده الفطري لاداء هذا العمل يشبه فرخ الدجاج، والحِسْل ولد الضب، فكل هذه المخلوقات ــ على حد تعبيره ــ «تولد وهي عالمة بصناعتها، عارفة بمستلزمات حياتها»، وما تتطلبه ظروف المعيشة من عمل وجهد.

عناكب سامة:

وقد نبَّه الجاحظ الى أن بعض أنواع العناكب سام كالعقارب، وهي ملاحظة دقيقة صحيحة، إذ أن هناك أنواعا منها يقال أن سمّها أقوى من سم الأفعى ١٥ مرة، مثل ذلك النوع الذي يعيش في امريكا الجنوبية ويعرف باسم: «الارملة السوداء — Black Widow». وسم العناكب لا لون له، وتختلف خصائصه باختلاف الأنواع. ومعظمه من السموم الضعيفة التي لا تقتل إلا صغار الحيوان والحشرات مما يصلح أن يكون غذاء للعناكب. لكن هناك أنواعا قليلة ذات خطر حقيقي على الانسان، مثل سم «الأرملة السوداء» الذي أشرنا اليه آنفا، ومثل سم العنكبوت المعروف باسم «العنكبوت المعتكف — Loxosceles Reclusa» الذي يعيش في المنازل حيث الدفء والجفاف، وسمّه قوي إلا أن تأثيره موضعي، ولا يسري في الجسم كله. أما سم العناكب الاوروبية فيؤدي الى شلل القلب والعضلات التنفسية والى تشنجات في البطن.

والعناكب نادرا ما يكون لديها ميول لمهاجمة الانسان، وحتى اذا هاجمته فقلما يتضرر الانسان البالغ المعافى بلدغتها. أما الطفل الهزيل فقد يموت من لدغ بعضها. ولا تلدغ العناكب الانسان عادة إلا إذا اثارها. وفي الولايات المتحدة الامريكية قدر العلماء انه من بين ١٢٩١ حالة «لدغة عنكبوتية» على مدار مئتي عام انتهت ٥٥ حالة فقط بالوفاة، وكانت الصدمة العصبية وحدها هي المسؤولة عن الوفاة في أغلب هذه الحالات.

استخدام السم في صيد الفرائس:

تستخدم العناكب سمها لقتل فرائسها من الحشرات والزنابير. وبعد الانتهاء من «تسميم» الضحية، تبدأ العنكبوت في التهامها. غير أن ما تقتله العنكبوت في ثانية تحتاج الى عدة ساعات لامتصاصه بشكل كامل.

وتقوم العنكبوت بتمزيق جسد الفريسة إربا إربا بعدما تنجح في إغتيالها. وهي تستخدم فكيها الخلفيين — لاداء هذه المهمة — بالتداخل مع الفكين الأماميين الحادين. وفي الوقت الذي تمزق العنكبوت خلاله جسد فريستها تقوم بغمرها بالسوائل الهاضمة التي تفرزها من غدد خاصة تقع قرب مدخل الفم. وهذه السوائل تيسر عملية الهضم، حيث تؤدي الى «هضم مسبق» للأجزاء اللينة من الفريسة، فتمتصها العنكبوت. وتستمر في التهام أجزاء فريستها حتى لا تبقي منها شيئا يذكر. وتستغرق هذه العملية وقتا طويلا يصل الى عدة ساعات لامتصاص ذبابة كاملة!



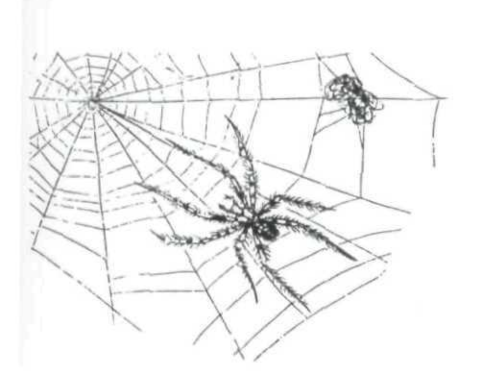
العنكبوت الذئب.

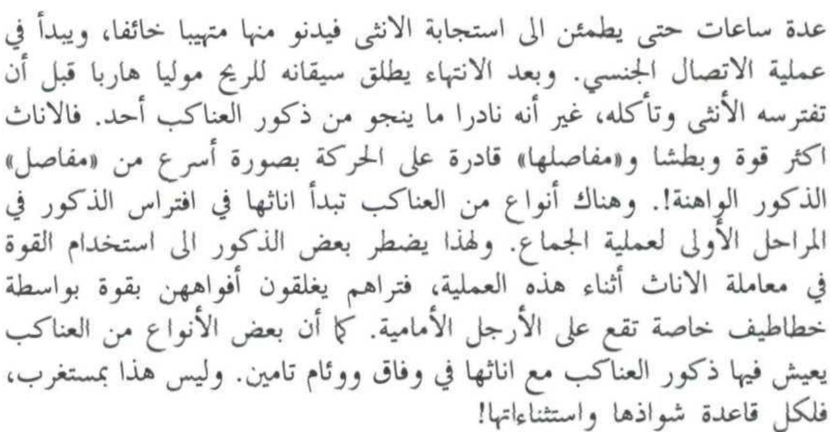
تقتل زوجها غير آسفة عليه:

العناكب حيوانات شرهة، فقد يبلغ الأمر ببعضها أن يأكل مئة حشرة في اليوم الواحد. وليست الحشرات هي كل غذاء العناكب، فإن منها ما يصطاد «مئويات الأرجل» والعناكب الأخرى، وإن منها أنواع كبيرة الحجم تهاجم الزواحف الصغيرة والضفادع، بل ولا تتردد أن تهاجم أحيانا بعض الثدييات الصغيرة كالفئران!

ومن الغريب أن إناث العناكب تقتل أزواجها أثناء الاتصال الجنسي. ويدرك الذكور مخاطر هذه العملية، فتراه يتوخى الكثير من الحيطة والحذر عند إقدامه على الاتصال مع أنثاه، ذلك لأن الأخيرة إذا ما رأته قبل الشروع بالعملية فسوف تنقض عليه وتلتهمه دون رحمة. وتضطر بعض أنواع العناكب الى الدخول في «مناورات» طويلة قبل البدء في مواسم التكاثر، حيث يفرز كل من الذكر والأنثى روائح خاصة تفوح في الجو المحيط بهما ليستقبلها الجنس الآخر بواسطة خلايا حسية منتشرة على قرون الاستشعار. ويأخذ الذكر في التلويح بأحد قرنيه، فيرفع احدهما ويخفض الآخر، ثم يعكس هذه العملية، وتستمر الحال على هذا المنوال







عدة ساعات حتى يطمئن الى استجابة الانثى فيدنو منها متهيبا خائفا، ويبدأ في عملية الاتصال الجنسي. وبعد الانتهاء يطلق سيقانه للريح موليا هاربا قبل أن تفترسه الأنثى وتأكله، غير أنه نادرا ما ينجو من ذكور العناكب أحد. فالاناث اكثر قوة وبطشا و«مفاصلها» قادرة على الحركة بصورة أسرع من «مفاصل» الذكور الواهنة!. وهناك أنواع من العناكب تبدأ اناثها في افتراس الذكور في المراحل الأولى لعملية الجماع. ولهذا يضطر بعض الذكور الى استخدام القوة في معاملة الاناث أثناء هذه العملية، فتراهم يغلقون أفواههن بقوة بواسطة خطاطيف خاصة تقع على الأرجل الأمامية. كما أن بعض الأنواع من العناكب يعيش فيها ذكور العناكب مع اناثها في وفاق ووئام تامين. وليس هذا بمستغرب، فلكل قاعدة شواذها واستثناءاتها!

وهكذا، تكون مهمة التزاوج أمرا قاتلا في عالم العناكب. ولهذا، ليس من الغريب أن نجد عدد العناكب الذكور يزيد مئات المرات عن عدد الاناث.

عناكب تصيب من تلدغه بالاكتئاب:

يعيش في إقليم البحر الأبيض المتوسط، وشمال افريقيا، نوع من العناكب، يعرف في مصر باسم «أبي شبت». وقد شاعت في اوروبا — وبخاصة في ايطاليا — اسطورة طريفة حولها، جعلت سمعة هذا النوع سيئة للغاية، حيث ساد الاعتقاد زمنا طويلا بأن لدغة «أبي شبت» تؤدي الى الموت اذا ما تعرض لها الانسان، اذ تصيبه بحالة من الاكتئاب، سميت «ترانتيزم — Tarantism» (نسبة الى مدينة تورنتو حيث كانت توجد هذه العناكب بأعداد كبيرة). والطريف ان لدغة «أبي شبت» لا تحدث إلا تهيجا بسيطا في أنسجة جلد الانسان.

وتصطاد الأسماك:

قد يتعجب القارىء إذا علم أن هناك نحو ٣٥ ألف نوع من العناكب، يعيش بعضها نحو عام، ويعيش البعض الآخر نحو ثلاثين سنة. وتعيش العناكب في كل مكان تقريبا. ومنها نوع يسمى العنكبوت صياد الاسماك لأنه يجري فوق سطح مياه البحيرات أو المستنقعات. وقد يغوص فيها ويبقى تحت سطح الماء ليتصيد الأسماك الصغيرة والضفادع،ويجرها الى حافة الماء حيث يمتصها عن آخرها بنهم شديد.

ماهر في طرد الأعداء:

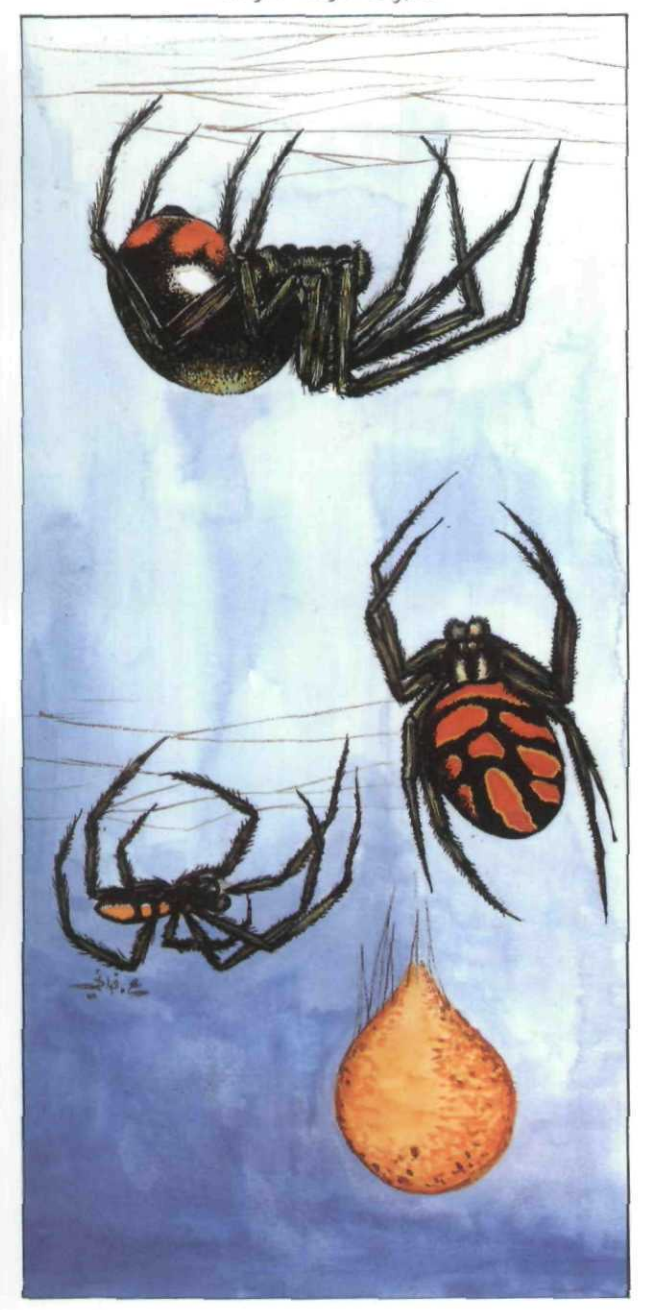
ومن العناكب نوع يعرف باسم «العناكب الذئبية — Wolf Spider». وهو نوع جسور ذو حركات رشيقة، وله عيون قوية. وهذا النوع يعيش على سطح الأرض ويبني بيوتا له على شكل أنفاق وحفر تحت جذوع الاشجار وبين الاحجار ثم يبطنها بأنسجة من خيوط الحرير التي ينسجها. وقلما تبتعد هذه العناكب عن فوهة أنفاقها، بل تبقى فيها متربصة ومتحفزة لتنقض فجأة على الفريسة التي تمر أمام النفق.

ومن غرائب هذا النوع من العناكب أن له وسيلة دفاعية فريدة. فإذا ما حدث ان ضايقه عدو ما فإنه يبدأ على الفور في حك جلد بطنه بأرجله الخلفية. وآنذاك، ينطلق منه شعر دقيق يطير في شكل سحابة، ويستقر هذا الشعر في عيون وأنف العدو فيشعر العدو بإحساس لاذع، وسرعان ما يرتبك ويقع في «حيص بيص» من جراء ذلك، ثم يطلق ساقيه للريح موليا أدباره.

ساكنة الباب المسحور:

وتستخدم بعض العناكب حيلا طريفة أخرى للهروب من الاعداء والوقاية من أخطار الفيضانات. ومن هذه العناكب نوع يعرف باسم «عناكب الباب المسحور». وهي تشتهر بحفر الانفاق في التربة وتبطين جدرانها بحيث لا تنفذ مياه الفيضانات خلالها. وتصنع ذلك بخلط التراب باللعاب ثم تبطنه بنسيجها الحريري، وتغلق النفق بباب مسحور يكون كالمصيدة.

عنكبوت الارملة السوداء.





عنكبوت ابو شبت

الباب الذي يأتي منه الريح:

أما العنكبوت المعروفة بـ «ذئب الرمال — Lycosa Lenta» فلها أسلوب طريف في الهروب من الأعداء. ويعتمد هذا الأسلوب على تطبيق المثل الذي ينص على أن «الباب الذي يأتي منه الريح.. عليك أن تسده وتستريح!». فهذه العنكبوت اذا طاردها إنسان أو أي كائن كان، أو إذا شعرت بأي حركة غريبة مريبة، على التو تحدث حركة بهلوانية تغوص على أثرها في الرمال متوارية عن عيون الناظرين. وحين تصل الى باب مسكنها الموجود تحت سطح الأرض، توصد الباب من خلفها مستعملة في ذلك أرجلها. وتظل على تلك الحال «مستريحة» الفكر والبال، حتى يبدأ العدو في الانصراف والارتحال!

حين يصبح الفاعل مفعولا به:

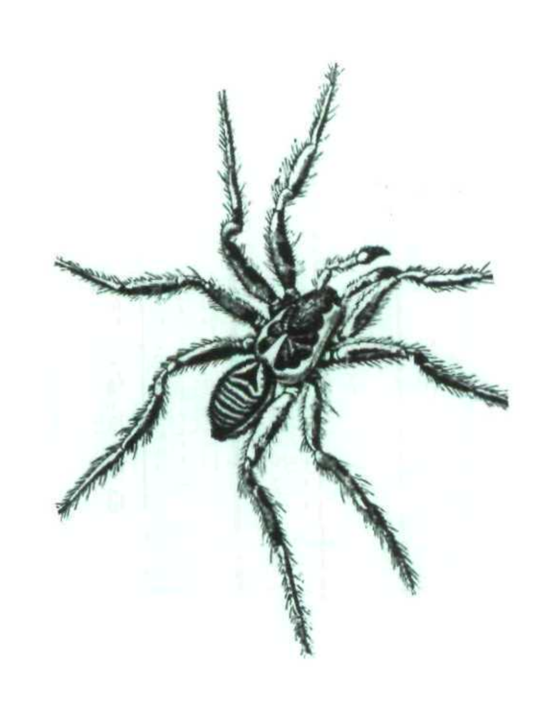
إذا كان القتل هو السمة السائدة في عالم العناكب، فإن هناك أعداءً طبيعيين لهذه المخلوقات تمارس معها أو ضدها هذه الجريمة البشعة. وإذا كانت العناكب تتسلى باغتيال الذباب والحشرات الصغيرة التي يدفعها سوء طالعها الى الاقتراب منها، فإن نفس الكأس المميت تتجرعه العناكب من حشرات أشد ضراوة، تعرف باسم «وحش النمل». وهذا «الوحش» يشبه اليعسوب الصغير الحجم. ويرقات «وحش النمل» ليس لها أجنحة، وتحمل فكوكا سامة قوية، ولا يزيد طولها عن السنتيمتر الواحد. وتتبع هذه اليرقات نفس الأساليب التي تنتهجها العناكب في صيد فرائسها. فهي تقوم بإعداد الاشراك والفخوخ لفرائسها بشكل محكم، حيث تحفر في الرمال حفرة مخروطية الشكل، وتكمن متوارية تحت سطح قاعها مبرزة فكيها الى أعلى. وما أن تحاول عنكبوت ولوج هذه الحفرة، حتى يبدأ «الوحش» بقذف حبيبات الرمال عليها فتسقط العنكبوت بإتجاه الفكين القاتلين! وهكذا تقع العنكبوت الصائدة في مصيدة من لا يرحمها ولا يرأف بها!

وتجدر الاشارة الى أن ما يصنعه «الوحش» بالعنكبوت، يصنعه أيضا بالنمل.

معلبات من العناكب الحية:

ومن الحشرات التي «تقتص» من العناكب أيضا، نوع يعرف بـ «النمسيات — Ichneumons»، وهي حشرات ذات أجنحة «غشائية» وتمتلك قدرة كبيرة على القتل. وفي الحقيقة، لا تفكر النمسيات بنفسها قدر ما تفكر بمصير «أطفالها». فاليرقات الصغيرات الوديعات تريد أن تأكل طعاما حيا. غير أن الأمهات ليس لديهن الامكانات اللازمة لتربية الأطفال والسهر على راحتهم وإطعامهم وكل ما تستطيع ان تفعله النمسيات هو تأمين المسكن لهم والغذاء.

وبناء المسكن لاطفال النمسيات ليس بالأمر العسير، فهو عبارة عن جحر تسد الأم بابه بإحكام. أما بالنسبة لتوفير الغذاء فهذا أمر أصعب بكثير. والصعوبة لا تكمن في طريقة الحصول عليه قدر ما تكمن في طريقة حفظه والحيلولة دون تعفنه. ولهذا، تعلمت النمسيات فن صناعة المعلبات قبل أن يعرفه الانسان!. والأم الحنون من هذه الحشرات حين ترى عنكبوتا «لذيذة» سرعان ما تنقض عليها وتدخل معها في معركة حامية الوطيس، واذا استمر القتال بين النمسيات والعناكب زمنا طويلا دون نتيجة حاسمة، فإنها تغرز في جسم العنكبوت إبرتها فتحقق النصر خلال ثوان معدودات. وبعد ذلك تقوم الأم بحمل فريستها الصريعة الى الجحر، وتضع على جسمها بيضة أو عدة بيوض، وتسد باب الجحر وتغادر البيت دون رجعة وكأنها تقول لتلك البيوض: «وداعا يا أحبائي!، لقد وفرت لكم البيت والطعام، فعيشوا في أمان كما تشاؤون!» وتبقى الفريسة في الجحر مشلولة الحركة تماما، وطازجة دون أن تتعفن، حتى تفقس البيوض وتظهر اليرقات فتتغذى عليها. وتظل الفريسة على قيد الحياة حتى بعد أن تأكل اليرقات أكثر من نصفها. والنمسيات حين تنقض على العناكب، فإنها لا توجه لها الضربة





عنكبوت تحرس بيوضها الموجودة داخل الشرنقة.

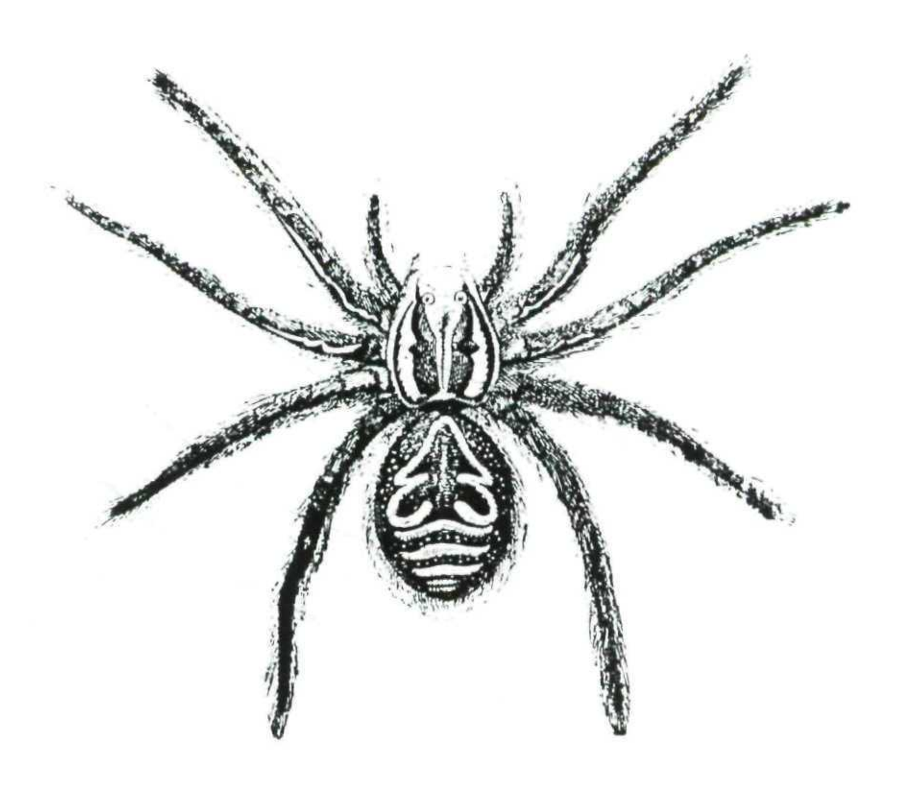
بشكل عشوائي، بل في مكان معين تماما. فهي تخترق جسم الفريسة لتصل الى عقد الجهاز العصبي، حيث تحقنها بقطرة سم وتصيبها بالشلل. واذا كانت العنكبوت من النوع الفتاك ــ كالعنكبوت الذئبي ــ Tarantula، فإن حشرة «النمس» تضطر في بادىء الأمر الى قلب العنكبوت على ظهرها ومن ثم غرز الابرة السامة في المكان اللازم لشل الجهاز العصبي الذي يتحكم بالأشواك السامة للعنكبوت. وبعد الانتهاء من هذا العمل، تنهض الحشرة من مكانها وتمضي بهدوء فتلدغ العنكبوت المشلولة في صدرها لكي تصيبها بعجز كامل.

والدخول في معركة ضد العنكبوت مسألة لا تخلو من المخاطر بالنسبة للنمسيات، إلا أن هذه الحشرات لا تعدم «فدائيا» يمكنه أن يهاجم بصورة مفاجئة فيطيح بالعنكبوت أرضا، ويجرعها السم الذي طالما جرعها العنكبوت لحشرات أخرى. وحين يذهب الفدائي للبحث عن جحر لخزان فريسته، تأتي أم «جبانة» فتسرق الفريسة وتحملها الى جحرها لتضع عليها بيوضها، وإذا تعذر عليها سلب الفريسة فإنها تكتفي بوضع بيضة عليها، وتلوذ بالفرار!

الويل لمن يقع في شباكه:

شباك العناكب أو بيوتها الحريرية ذات أهمية كبرى في حياتها. وهي تتفاوت في أشكالها وهندسة بنائها. وتستخدم العناكب هذه الشباك في أغراض شتى: في إعداد وتجهيز أكياس البيض، وفي تجهيز المكان الملائم لنمو «الأطفال»، وفي أعمال الصيد والقنص. وعلى الرغم من وهن بيوت العنكبوت، إلا أن الخيوط التي تنسج منها هذه البيوت تتصف بمقاومة عالية للشد الطولي. وقد برهنت تجارب العلماء على أنه اذا شددنا أحد هذه الخيوط بقوة تمدد تصل الى نحو نصف طول الخيط فانه لا ينقطع. وباستخدام الأجهزة العلمية الحديثة إتضح أن مقاومة هذه الخيوط للشد كبيرة جدا، لا يفوقها سوى ألياف الكوارتز المختلطة.

وقد جرت عادات العناكب في صيدها ان تتعلق مقلوبة بغصن في شجرة أو بأي شيء آخر يخفيها، لكنها في الوقت نفسه تمسك بخيوط شبكتها، فإذا مرت



من تحتها حشرة تعيسة الحظ ألقت عليها العنكبوت الشبكة فتلتف على الفريسة خيوطها الحريرية وتصبح بين براثن العنكبوت القاتلة!

ويوجد نوع من العناكب يستخدم طريقة طريفة في الصيد، حيث يفرز خيوطا طويلة يبلغ الواحد منها عدة سنتيمترات، ثم يجعل في نهاية كل منها قطرة من مادة لاصقة، ثم يرسل هذه الخيوط لتدور في الهواء بفعل الرياح الى أن تمر بها حشرة طائرة فتعلق بأحدها، ومن ثم تصبح فريسة طيبة المذاق للعنكبوت.

ومن عجائب خلق الله في هذه العناكب أن هناك أنواعا طفيلية منها تعيش في المناطق الحارة بوجه خاص. وهذه العناكب لا تقوم بنسج شباكها بأنفسها، بل تعيش عالة على شباك غيرها من العناكب الأخرى، معتمدة في ذلك على منطق القوة!

ومن العناكب أنواع يتعاون جميع أفرادها في بناء مسكن جماعي فوق شجرة مثلا. وهذا المسكن الجماعي يكون عبارة عن خيمة حريرية قد يصل حجمها نحو ستة أقدام مربعة، تتدلى منها خيوط لزجة تعلق بها الحشرات الطائرة.



خيام تحت سطح الماء:

إن الغالبية العظمى من العناكب يعيش في المناطق البرية، حيث يتنفس بواسطة أكياس رئوية خاصة والعنكبوت الوحيدة التي حبذت العيش في الماء نوع يعرف باسم «عنكبوت الماء» وجسم هذه العنكبوت مكسو بزغب لا يتبلل بالماء. وحين تغطس تحت سطح الماء تتعلق بزغبها فقاقيع هوائية صغيرة جدا تغطي جسمها بأكمله بغلاف هوائي. وفي الماء يتألق هذا الغلاف وتصبح العنكبوت أشبه بكرية حية متحركة من الزئبق البراق! وبالاضافة الى ذلك، فالعنكبوت حين تمد طرف بطنها من الماء تسحب فقاعة هوائية اكبر تظل محتفظة بها بين أرجلها الخلفية طيلة تطوافها تحت سطح البحر، حتى تصل الى «خيمتها» التي تكون قد قامت بنسجها وسط النباتات المائية. والخيمة تشبه قارورة فتحتها الى أسفل. وفي الفتحة تطلق العنكبوت فقاعة الهواء، ثم تعود عدة مرات الى السطح لتستكمل تعبئة الخيمة بالهواء اللازم لتنفسها عدة أسابيع. وكلما زاد تنفس العنكبوت تقلص

تركيز الاوكسجين في الفقاعة الهوائية. وحين تصل نسبته فيها الى أقل من ١٦٪، فإن الاوكسجين المذاب في الماء سرعان ما يبدأ في الانتشار في الفقاعة الهوائية، وبذلك يبقى احتياطي الاوكسجين في الفقاعة محتفظا بكميته دائما.

وعادة، يشيِّد العنكب «الذكر» خيمته بالقرب من خيمة الانثى تحت سطح الماء. وحينما يبلغ الذكر مرحلة النضوج الجنسي، يبدأ في انشاء ممر يربط بين الخيمتين، ويبطنه بحيث يمنع تسرب هواء الخيمتين منه. وعندما تختلط الفقاقيع الهوائية الموجودة بكلتا الخيمتين معا، تنتشر الروائح الجنسية للطرفين، ومن ثم تبدأ مراسم وطقوس اللقاء الجنسي بينهما.

بطل في الوصول الى المناطق القطبية:

وكما نجحت العنكبوت في الحياة تحت سطح الماء، نجحت أيضا في الوصول الى المناطق القطبية الجنوبية حتى أن البعض يعتبرها بطلة قارة «انتراكتيكا» الجليدية في التوغل للمسافات الطويلة. فقد عثر افراد بعثة انجليزية على عنكبوت صغيرة في مكان يقع على بعد ٥٠٠ كيلومتر فقط من نقطة القطب الجنوبي. وتنشط هذه العنكبوت خلال موسم الصيف القصير هناك، وبعد انتهاء الموسم تغرق في سبات عميق حتى حلول صيف جديد.

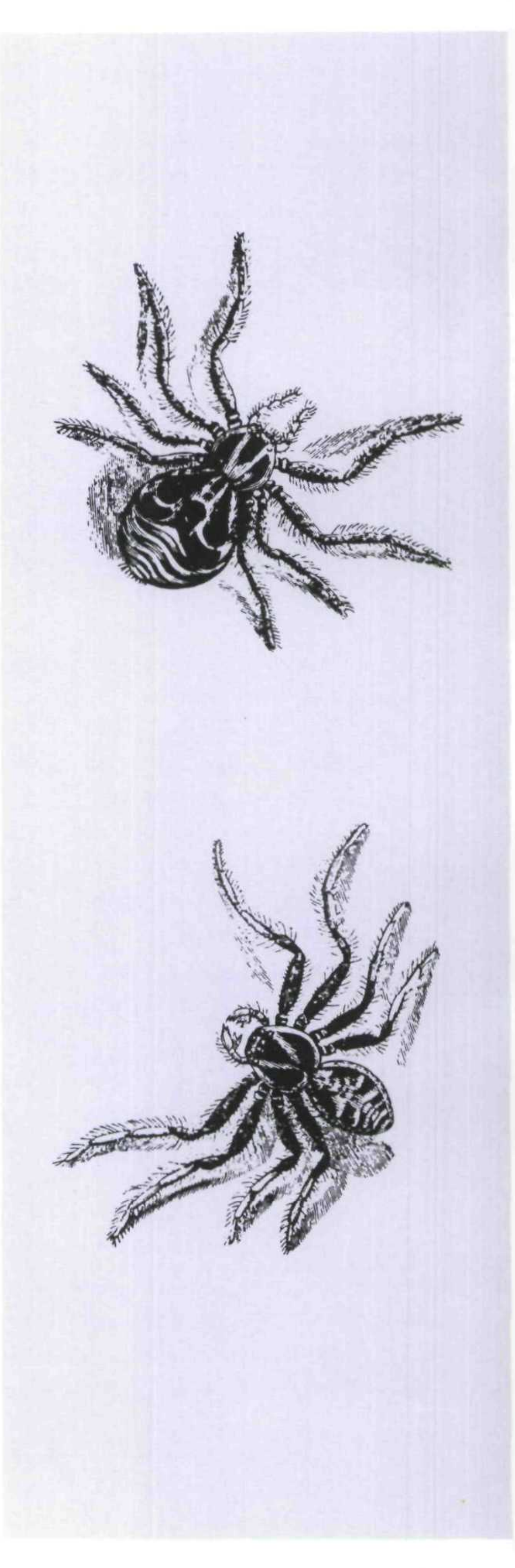
غزو بالمظلات:

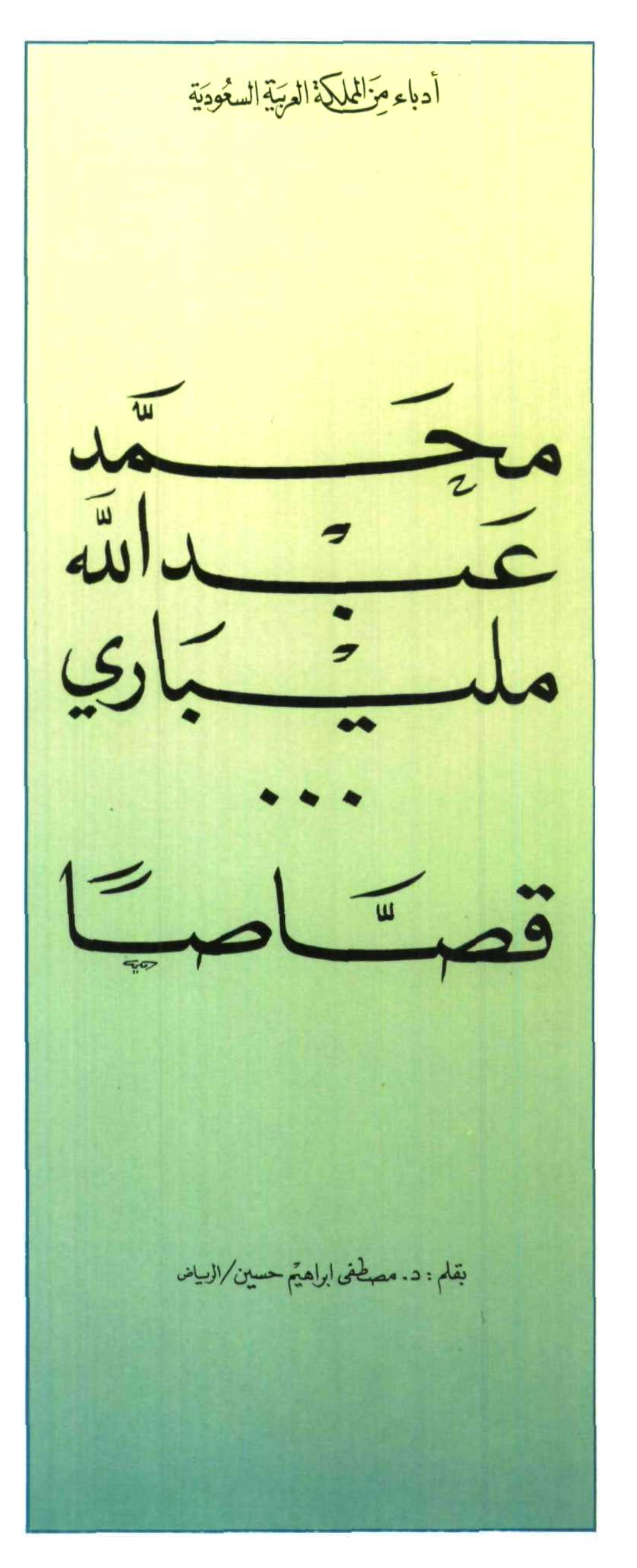
العناكب لها قدرة كبيرة على الحياة في ظروف بيئية قاسية، وهي تنتقل من مكان الى آخر حيث تنصب «خيامها» في الموضع الذي تراه ملائما للاستيطان. ومن الحوادث التاريخية «العنكبوتية» الغريبة تلك الحادثة التي وقعت في جزيرة كراكاتو المعزولة في المحيط الهادي. ففي عام ١٨٨٣م إنفجر في هذه الجزيرة بركان ضخم قيل ان قوته المدمرة كانت تساوي عشرة آلاف قنبلة هيدروجينية. وأدى هذا الانفجار الى القضاء على جميع أنواع الحيوانات والمخلوقات بالجزيرة المنكوبة التي تحولت تربتها الى فحم ورماد مختلطين بالحمم والمواد المنصهرة التي تدفقت من جوف البركان.

وقد اتخذ علماء الحياة هذه الجزيرة يومذاك مختبرا طبيعيا ليدرسوا فيها تسلسل ظهور الكائنات الحية، أي من الذي سيكون له فضل السبق في الوصول اليها قبل غيره. وبعد تسعة أشهر من حادث انفجار البركان، ذهب أحد علماء الحياة الى الجزيرة، وراح يبحث هنا وهناك في أنحائها عن أي كائن حي، حيواني أو نباتي، وبعد أن ذرع أرجاء الجزيرة يمنة ويسرة، ونفذ صبره، وقع بصره على عنكبوت صغيرة كانت قد بدأت تشرع في نصب خيمتها. والسؤال الذي يتبادر الى الذهن هو: كيف وصلت هذه العنكبوت الى تلك الجزيرة؟ وكيف تخطّت العوائق المائية رغم أنها ليست من نوع عنكبوت الماء. لقد كانت تعيش على اليابسة بعيدا، وهي لا تزال في أيام عمرها الأولى. ويبدو أنها تسلقت غصن شجرة، وصنعت نسيجا حريريا، وأمسكت بأحد أطرافه، بينما ترك الطرف الآخر يتماوج مع النسمات، وحينما اعتدل الطقس، وبدأت التيارات الهوائية الصاعدة في العمل، ارتفعت العنكبوت بنسيجها الى أعلى، وأصبح هذا النسيج مظلة تنقلها الرياح أثناء هبوبها. وحينما اقتربت من سطح الجزيرة، تخلصت من مظلتها وهبطت على الأرض.

وهجرة العناكب الصغيرة باستخدام المظلات أمر شائع في دنيا العناكب. وهي عادة لا تهاجر فرادى، وإنما تكون هجرتها جماعية. وقد تقطع أثناء هذه الهجرة مئات الكيلومترات دون توقف. وربما كان لسان حالها خلال هذه الرحلة قول الشاعر العربي:

(هاجـر) تجد عوضـا عمَّـن تفارقـه
غدا تبدل أحبابـا وأوطـانـا □





هو محمد عبدالله محيي الدين المليباري، احد رواد الحركة الأدبية بالمملكة العربية السعودية. ولد بمكة المكرمة في عام ١٣٤٩ للهجرة[١]، وتعلم بالمدرسة الصولتية، فمدرسة الفلاح بمكة المكرمة، ثم حصل على درجة الليسانس في الشريعة الاسلامية[٢].

وقد عمل مليباري في صحف سعودية مختلفة، فرأس تحرير صحيفة «الرياض»، كما عمل عضوا بمؤسسة عكاظ الصحفية، ومحررا بجريدة «البلاد»، أثناء صدورها بمكة، وسكرتيرا لتحرير جريدة «الندوة»، منذ أول صدورها، فمديرا لتحرير مجلة «قريش».

ومليباري من الأدباء الذين كتبوا القصة، ونظموا الشعر، ولكن غلب الفن القصصي على نتاجهم الأدبي. ويسلكه بعض المؤرخين مع طائفة من كتاب القصة السعوديين في اتجاه فني واحد، هو ما يسمونه «مرحلة الثورة» في القصة القصيرة بخاصة، ومن هؤلاء الكتاب: غالب أبو الفرج، ومحمود عيسى المشهدي.

ويبدو أن مليباري قد مارس قرض الشعر على قلة، وان فن القصة هو الذي غلب على ممارساته الأدبية، فهو معدود — بين جمهرة الباحثين — من كتاب القصة.

وقد نشر مليباري أكثر قصصه في مجلة «المنهل» التي كان صاحبها الراحل عبدالقدوس الانصاري يولي فن القصة عناية خاصة، ويدعو الكتاب السعوديين الى الاهتمام به، ومن قصص مليباري في «المنهل»: الصفعة الأخيرة، وأريحية، والانتقام، والاحسان الضائع، وزوجة أبي، ومعجزة الايمان بالارادة.

هذا الى ما ضمته مجموعته «قاتلة الشيطان وعشر قصص أخرى»، مما سنعرض له في هذه الدراسة بالتحليل والتقييم.

أما عن فن الرواية لديه، فقد أصدر روايته «وغربت الشمس»، وسوف نتناولها — أيضا — بالدراسة التحليلية والتقييم.

مجموعة قاتلة الشيطان:

وهذه المجموعة تضم اقصوصة «قاتلة الشيطان» وعشر أقاصيص أخرى، منها — على سبيل المثال — اقصوصة بعنوان «محادثة تليفونية مع إبليس»، وأقصوصة أخرى بعنوان «سأعيش قوية»، وأقصوصة «هيا الضائعة».

وهذه المجموعة القصصية تنقسم — من حيث الطابع — الى نوعين من القصص، نوع ذهني فلسفي، والآخر واقعي اجتماعي. وسوف نرى الأقاصيص الذهنية — لدى مليباري وإن إعتمدت على الحركة العقلية أكثر من الاعتماد على الحركة النابعة من الحدث الدرامي، قد استوفت شرائط الأقصوصة،

---

(١) جعل الدكتور بكري شيخ أمين مولده في عام ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م. والصواب ما اثبتناه.

(٢) لم توافنا المصادر التي بين أيدينا باسم الجامعة التي حصل منها على الليسانس.

وسلم لها بناؤها، على عكس ما نرى في الأقاصيص الواقعية، التي توافر لها عنصر الحركة الدرامية النابعة من الحدث، ولكنها افتقدت شرائط الأقصوصة، وبدت فيها التفاصيل التي لا تكون ــ عادة ــ إلا في العمل الروائي.

ثمة ملحظ آخر، وهو أن الأقصوصة الذهنية في مجموعة مليباري المتقدمة قد اتخذت من الشكل الخرافي إطاراً تتحرك في نطاقه. ويبدو أن هذا الشكل قد ضمن للكاتب حرية الحركة الذهنية، وتصارع الأفكار، بينما قد لا يسمح الشكل الواقع بمثل ذلك. وهذا ما سوف نحاول إثباته من خلال الدراسة التحليلية للنصوص، والتي نبدأها بأول أقاصيص المجموعة.

قاتلة الشيطان:

تدور أحداثها حول سيدة تورط إبنها في قتل احد اصدقائه طعنا بسكين في بطنه. وتلقت الأم خبر إخفاق كل المساعي لاقناع أهل القتيل بقبول الدية، فتصاب الأم بذهول، وتصوب عينيها الدامعتين نحو الأفق المسود في ناظريها، وتصرخ:

ــ أين أنت أيها الشيطان.. سأبحث عنك.. وسأجدك ثم أقتلك، سأفتح بطنك، كما فتح ابني بطن صديقه.

وتفاجأ الأم المسكينة بأبناء الشيطان، وقد تمثلوا أمام ناظريها فرحين بنجاح أبيهم في إغراء أحد أبناء آدم بقتل أخيه، فراحت الأم ــ في اندفاع مغيظ ــ ترشق بطون هؤلاء الشياطين الصغار بالسكاكين، ثم فوجئت بالشيطان الأب، يدور بين الأم وبينه حوار، ليتحدث عن شقائه وحرمانه من السعادة، وكيف أنه لولا الرذائل والشرور التي ينشرها، لكان العالم «عاطلا لا عمل فيه، ولا ابتكارات، ولا عقول مفكرة، ولا حتى حضارة.». بل ان «الجشع هو المحرك للحياة كلها. هو أساس الحضارات، هو باني ما يسمونه الأمجاد، هو الذي أخرجكم من الغابة الى المدينة.».

وتلفتت الأم، فإذا بها تجد جارتها وابنتها واختها، واذا بها في مستشفى بعد أن سقطت في شرفة منزلها مغشيا عليها، حين علمت بأن ولدها في طريقه الى الاعدام قصاصا، بعدما رفض أولياء القتيل الدية. لقد كان ما رأته الأم من شياطين، وما دار من حوار حلما لا واقعا. ولكن فجأة تفتح عينيها، لتجد احدى جاراتها واخريات معها.

الأقصوصة ــ إذن ــ فلسفية المضمون، خرافية الشكل، وقد حاول الكاتب أن يصب في هذا الوعاء الخرافي مضمونا فلسفيا، مؤداه أن هذا الشر الذي ينفثه الشيطان في عالم البشر، هو عنصر من عناصر الصراع وحركة الحياة التي لا تستمر بدون هذا الصراع المثير. كما اتخذ الكاتب من حادثة واقعية منطلقا الى احداث خرافية.

ويبدو واضحا تأثرالكاتب بمسرح توفيق الحكيم الذهني، وبخاصة مسرحياته الصغيرة التي تضمها مجموعته «مسرح المجتمع»، ليس فقط من حيث الشكل الخرافي والاسطوري، والمضمون الذهني والفلسفي، ولكن من حيث الحوار المتدفق بالحيوية اللبق الوجيزالذي صنعه مليباري في تلك الأقصوصة، مع رسم صورة متخيلة للشيطان في سمته وملبسه وحركاته وعالمه الحسي والمعنوي على نحو مسرحي.

أما لغة الأقصوصة ــ بشكل عام ــ فهي لغة شاعرية، اعتمدت على عنصر «التركيز»، الذي اتسمت الأقصوصة به في شتى عناصرها الفنية، فحققت بناءً قصصيا مثاليا حقا.

ومع أن شخصية «ابليس»، ليست بالشخصية المرئية لنا، فإن الكاتب قد تخيلها على نحوما، جعلها ــ وهي الشخصية الميتافيزيقية ــ تبدو وكأنها شخصية واقعية مقنعة، وأجرى على لسانها حوارا حيا نابضا.

أقصوصة «محادثة تليفونية مع إبليس»:

وهي ــ كما حمل عنوانها ــ محادثة تليفونية جرت بين الشيطان وبين آدمي، لم يشأ الكاتب أن يسميه باسم. وتدور في بدايتها على النحو التالي:

ــ هالو؟
ــ هُو؟
ــ هُو.. أهُو اسمك؟
ــ إيه... ألا تتحدث الانجليزية.. اني أسألك (من؟) يعني بالانجليزية هو؟.
ــ هل المفروض
ــ لا. ليس المفروض. ولكن حينما سمعتك تقول (هالو) ظننتك انجليزيا.
ــ ولكن.
ــ ولكن ماذا؟
ــ ماذا؟. ان كلمة (هالو) لم يكن لها مصطلح عربي.
ــ غريب، و لم لا تقول: نعم، (وبلاش من هالو) ان كنت متعصبا للغتك.
ــ المهم.. من أنت؟
ــ أنا؟
ــ نعم أنت.
ــ وهل يهمك أن تعرف من أنا؟
ــ وكيف تريد منى أن أتحدث اليك.. أو أتحادث معك أو أن أعرفك؟
ــ الآن تأكد لي يا بني آدم انكم مراءون.
ــ ماذا؟ أولست من بني آدم؟ ثم ماذا تعني كلمة: مراءون؟
ــ لست من بني آدم.. وأعني بكلمة مراءون أنكم لا تواجهون بعضكم إلا بعد ان يتقمص احدكم القميص الذي يلائم الآخر.

وهكذا يظل الحوار مسترسلا على نحو ما نرى، مستطردا من نقطة البدء هذه الى طرح قضايا ذات صلة بما طرحته اقصوصة «قاتلة الشيطان» السابقة، ومن هذه القضايا «قضية الخير والشر»، ودور إبليس في إثارة الشر في عالم البشر، والتي من أهمها الحسد والحقد والجريمة.

وفي هذه الأقصوصة حاول الكاتب ان يتناول بالتحليل العلمي بعض الرذائل الاجتماعية، فالحسد «أكثر فعالية من الخوف في استثارة النفوس، واذا اعتاد انسان ما، فإنه يحدث تغييرا عضويا، وتلحق به امراض فتاكة، وتتغير صحتة تغيرا بالغا، وهو أفتك بالكيان الفردي من الهموم، التي تميت الشباب في شرخ شبابه..».

وهكذا تمضي أقصوصة «محادثة تليفونية مع إبليس» وكأنها تكمل اقصوصة «قاتلة الشيطان». ويتغلب عليها الشكل الحواري، لا الشكل السردي، وكأنها مشهد مسرحي.

كما أن أقصوصة «محادثات تليفونية» لا تركز كثيرا على المضمون، فالكاتب فيها ينساق مع الحوار، وتستهويه عناصر نجاحه في اصطناعه، فتفقد الأقصوصة ــ التي هي أقرب الى الحوار ــ التركيز على المضمون المطروح، على عكس ما رأينا في «قاتلة الشيطان»، مع كون الاقصوصتين تنتميان الى الخرافة.

وبينما وجدنا للعنصر الدرامي ــ ممثلا في الحدث ــ بعض الوجود في اقصوصة «قاتلة الشيطان»، فقد خلت «محادثة تليفونية» من الحدث، وبالتالي خلت من عنصر الصراع النابع من المواقف والأحداث، وغلب عليها الطابع الذهني. واذا كان «الكيان الخرافي» في «قاتلة الشيطان» قد نبع من الواقع، أي أنه كان مجرد هلوسات أثناء إغماءة الأم وإنهيارها. فإن أقصوصة «محادثة تليفونية» كانت خرافة خالصة.

أقصوصة «سأعيش قوية»:

لم تخرج ــ من حيث الشكل ــ عن الاطار الخرافي، كما لم تخرج ــ مضمونا ــ عن الاطار الذهني الفلسفي الذي يطرح فكرة أو قضية، ويثير حولها النظر والحوار. وتتلخص هذه الأقصوصة في أن كاتبا، لم يبق من القصة التي كتبها سوى مصير البطلة. وتوقف حائرا: كيف يرسم هذه الخاتمة، هل يتركها تسقط في أوكار الرذيلة، وتجارة الهوى بعد أن يطلقها زوجها في لحظة من لحظات الطيش؟.. ثم يتركها وأولادها؟ لقد فعل الكاتب ما يؤدي حتما الى هذه النهاية الأليمة المفجعة، ولكنه لم يشأ أن يلقى ببطلته الى هذه الهاوية، ضنا بعفة البطلة وشرفها، وحفاظا على تماسك الأسرة وكيانها.

ويظل الكاتب يبحث عن نهايات أخرى، كأن تبحث البطلة عن عمل لا يليق بمستواها الاجتماعي، وإن كان عملا شريفا، أو أن يدع أكبر أبنائه ــ ولما يتجاوز السابعة من عمره ــ يعمل عاملا في متجر أو بناء ، غير أنه خشي ان تتحول الشفقة من الزوجة الى الابن، فتفقد بطلته حب الكاتب لها، وافتتانه بها.

وبينما الكاتب يفكر في خاتمة مناسبة لبطلة قصته، فوجيء ببطلة القصة تتمثل له بشحمها ولحمها تمثلا حقيقيا، ويدور حوار بينها وبين الكاتب الحائر بين النهايات ومضمون الحوار هو: هل المرأة مخلوق قوي أم ضعيف؟ وهل سعادة الأسرة في أن تكون المرأة أقوى من زوجها؟ أم أن العكس هو الصحيح؟

ولا تنتهي الأقصوصة بحسم لهذا السؤال، فقد كان الكاتب يحلم، ولم توقظه سوى نداءات أمه تناشده النهوض من نومه. والأقصوصة ــ على هذا النحو ــ أقصوصة ذهنية فلسفية مضمونا، ولكنها خرافية شكلا. شأنها في ذلك شأن ما مضى من الأقاصيص. واذا كانت فيما مضى فلسفية مجردة، فإن الفكرة ــ هنا ــ اجتماعية تتناول شخصية المرأة وموقعها في الاسرة، كما تتناول ــ من وجه آخر ــ كيان الأسرة.

ولقد كان بوسع الكاتب أن يطرح هذا المضمون الاجتماعي الواقعي طرحا واقعيا، وهو يحاول البحث عن «الخاتمة الملائمة لبطلة قصته» بعدما تملكته الحيرة. ولكن الكاتب اختار الشكل الأثير لديه، وهو الشكل الخرافي، وإن كان هذا الشكل قد إنطلق من حلم منامي، فالكاتب يحلم بخروج بطلة الأقصوصة، وشخوصها أمامه شخوصا واقعيا.

وهكذا تمضي تلك الأقاصيص بعالمها الخرافي الطريف ليبدأ نوع آخر من الأقاصيص إتخذت الشكل الواقعي إطارا للمعالجة، كما تجاوزت أيضا المضمون الفلسفي الى مضامين واقعية.

وقبل أن ننتقل الى النمط الواقعي من أقاصيص مليباري نبدي ملاحظتين جديرتين بالنظر:

الملاحظة الأولى: أن مليباري قد رأى بأن الشكل الخرافي يعطية ثوبا فضفاضا يمكّنه من الحركة الذهنية، يمتع القاريء الشغوف بالتيار الذهني في الأدب بشكل عام. غير أن المضمون الفلسفي لا يلزمه أبدا شكل خرافي لابرازه وطرح قضاياه. فالشكل الواقعي قادر على الطرح الفلسفي من خلال الحدث الواقعي المتحرك النابض، والشخصية الواقعية.

الملاحظة الثانية: أن سائر أقاصيص المجموعة، وهي ذات مضامين واقعية، قد اتخذت الشكل الواقعي في المعالجة. ولكنها لم توفق الى البناء الفني المعهود في القصة القصيرة، فهي تجول جولات واسعة في تفاصيل لا يتسع لها

ـ عادة ـ بناء الأقصوصة.. مما يجعلها تتخذ البناء الروائي لا بناء الاقصوصة. وبقدر ما كانت الأقصوصة الذهنية ـ في مجموعة مليباري ـ ملتزمة بالبناء الفني الملائم، وحققت نجاحا ملحوظا في هذا الجانب، فإن الأقصوصة الواقعية المتجاوزة لهذا البناء واقعة في أسر البناء الروائي.

ونحاول فيما يلي أن نتناول بالدراسة التحليلية نموذجين من الأقصوصة الواقعية.

أقصوصة «هيا الضائعة»:

تقدم أقصوصة «هيا الضائعة» حكاية حب ضائع في متاهات المدينة، قصة بدوي أحب فتاة من قريته، ثم ارتحلت أسرتها الى المدينة وانقطعت أخبارها. والمعالجة في «هيا الضائعة» رومانسية الطابع بما يسري في ثنايا احداثها من جو ميلودرامي زاخر بالبكاء والحزن والليل والطبيعة والفراق غير المتوقع. وكأنما أراد الكاتب أن يعبر عن أزمة الضياع التي يعانيها أبناء القرية، أو أبناء البادية، حين يهبطون الى المدينة الواسعة، وهذه واحدة من الأزمات التي تناولتها القصة العربية الحديثة، والقصة العالمية.

وبقدر ما تفترق «هيا الضائعة» عن الأقاصيص الثلاث السابقة ـ من حيث عدم اتكائها على الخرافة وطرح القضايا الفلسفية المغرقة في الذهنية، فإن خيطا دقيقا يربط بين هذه الأقصوصة، وبين الأقاصيص الثلاث السابقة، ذلك الخيط يتمثل في «الطابع الانساني» للمضامين.

وإذا كنا ـ فيما مضى ـ من أقاصيص ـ لم نتحسس أي أثر للبيئة، وتفاعلها مع الشخصية، بل لم نتبين معالم للشخصية، فإننا في «هيا الضائعة» نتلمس ملامح من البيئة، وهي هنا بيئة بدوية. كما أن الشخصية فيها قد بدأت تكتسي باللحم، وتتدفق في أوصالها دماء نابضة بالحياة، بل ان هذه الشخصيات تحمل أسماء، تصلها بالواقع، وليس مجرد أنماط أو دمى يحركها الكاتب بأيدٍ لم يحكم إخفاءها.

صحائف القدر:

وتحكي قصة فاكهي كان رقيق الحال، ثم أنعم الله عليه بالثراء الواسع، ومع هذا، فإنه ظل مقترا على نفسه في مأكله ومسكنه وسائر أمور حياته، بل إنه كان يحتال بشتى الحيل، حتى لا يدفع حق الله من زكاة أو صدقة جارية، مع أنه كان حريصا على أن يؤدي سائر فرائض الله من صلاة ونحوها.

ورزق الفاكهي ولدا، بعد طول حرمان. ولكن الولد يصاب بداء السرطان في احدى عينيه، مما إضطر الأطباء الى استئصالها. ولم يمض طويل وقت، حتى أصيبت العين الأخرى بالسرطان أيضا. وكان على الأب ان يبذل قصارى الجهد، حتى لا يتم استئصال العين الثانية بالسرطان، فيسافر الى الخارج، ويعرضه على الأطباء، ولكنهم يجمعون على ضرورة استئصال العين.

وراحت الاقصوصة تحكي مواقف مؤثرة قبل أن تتم العملية، ويحرم الطفل المسكين من نعمة البصر. فتصور لنا ترك الأب إبنه يملأ عينه الباقية برؤية دراجته، وختم الكاتب الأقصوصة بقوله لأبيه:

ـ خلليني أفرح يا «بابا» بالبسكليته، قبل ما أصير أعمى.

وتدافعت الدموع من عيني صالح، فأشاح بوجهه عن الصغير ليخفيها عنه. لكنه لم يتمالك نفسه، فإنخرط في بكاء طويل.

ولعل مغزى الأقصوصة يشير الى أن من بخل بمال الله ابتلاه الله. أما من حيث البناء، فهو ليس بناء الأقصوصة، بل هو بناء رواية، فليس هناك شريحة دقيقة من حدث أو موقف أو خاطر أو شعور ما. بل هناك أحداث ومواقف متعددة، ومفصلة، تبدأ بحكاية الفاكهي نفسه وهو في أيام فقره، ثم تحوله الى الثراء العريض، ثم وصف بخله وشحه، وحرمانه من الإنجاب، ثم انجابه وإصابة الطفل.. الخ.

فإذا جاء الكاتب الى اللحظة التي كان عليه أن يبدأ بها، ويقصر القول على تحليلها، (وهي لحظة ما قبل استئصال العين الثانية)، مضى بها على عجل، برغم ما فيها من امكانات حية تجعلها ـ وحدها ـ من أصلح المواقف للأقصوصة.

ولو بدأ الكاتب أقصوصته من هذه اللحظة، وركّز فيها معالجته القصصية، مستخدما أسلوب الاسترجاع Flash Back للإلمام الموجز بجوانب من حياة الرجل، أقول: لو فعل ذلك لاستوت هذه الأقصوصة عملا فنيا بالغ الروعة حقا.

مليباري روائيا:

ونتناول هنا روايته «وغربت الشمس». وهي رواية قصيرة، كتبها في عام ١٣٨٦هـ، أو لعل هذا هوتاريخ النشر، وليس التاريخ الفعلي للكتابة. وتحكي الرواية قصة خادم ريفية، كانت تعمل لدى احد أثرياء القرية. ولما كانت زوج الغني لا تنجب في كل مرة إلا أطفالا ميتين، فقد تبرعت بثينة بأحد توأمين وضعتهما في وقت واحد مع مخدومتها التي وضعت ـ هذه المرة أيضا ـ طفلا ميتا في المستشفى، وكانت ما تزال في حال تخدير بعد أن أجرى الأطباء لها جراحة. فانتهز زوجها الفرصة، وأقنع مخدومته بالتبرع بأحد طفليها، قبل أن تفيق الزوجة من غيبوبتها، وربما أصيبت بصدمة قضت عليها.

ولا تحدثنا الرواية ـ فيما بعد ـ عن الوجيه حسن (وهذا اسم الرجل الغني)، ولا عن زوجه أو ولده بالتبني، وإنما يمضي الكاتب بنا فيحدثنا عن رجل مخلص وقور، نزل القرية، وعرض على أهلها ان ينشيء شركة كبيرة تضم

أراضيهم الصغيرة، وتوفر كل وسائل الرعاية للأرض، كما تعمل على تطوير القرية. وبعد نقاش طويل يقبل أهل القرية مشروع الرجل، ويضعون أراضيهم تحت تصرفه، دون أن يتنازلوا ــ بطبيعة الحال ــ عن ملكيتهم لتلك الأراضي، على أن يقوم الشيخ العلايلي ــ وهو صاحب المشروع ــ ببناء السدود التي تحمي القرية الواقعة على الوادي من غائلة السيول، ويشق القنوات، ويمهد الطرق، ويصل القرية بالمدرسة. وفي الرواية بعض الشخصيات التي قدمها الكاتب. فمن هذه الشخصيات «هشام»، وهو ابن الخادم بثينه، التي تنازلت عن شقيقه ــ بعد ولادتهما ــ لمخدومتها كما مضى القول. وهشام فتى مثالي وطني شريف، يتفجر إخلاصا لأهل قريته.

وعلى النقيض لهشام تأتي شخصية «محمود أبو جرس» وكيل الشيخ علايلي صاحب مشروع الشركة. وهو شاب جشع مجرد من الأمانة والشرف، يحتقر أبناء القرية، ويماطلهم في حقوقهم، ويراود الفتاة «ناهد» احدى فتيات القرية، منتهزا فرصة انفراده بها داخل غابة من غابات القرية.

وقد ظل هشام وكيلا على أهل القرية، يقف ضد «محمود أبو جرس» لحماية حقوقهم ، الى أن قرر الشيخ العلايلي الاستقرار في القرية، التي بلغت مبلغا كبيرا من النهوض والثراء عاد على أهلها بالخير. وقد ابتنى الشيخ العلايلي لنفسه قصرا داخل القرية، واحضر معه ابنته «ألفت»، وشابا يدعى «عصام»، خطيب «ألفت» وابن صديقه «حسن». ويكل الشيخ العلايلي الى الشاب «هشام» أمورا كبيرة، كالمرور على الحقول، ومرافقة الخبراء الذين نزلوا القرية، وكانت الفتاة «ألفت» تلازم هشاما، مما أثار غيرة خطيبها وابن عمها عصام، مما جعله ــ بعد هذا ــ يتحالف مع «محمود ابو جرس» ضد هشام، ويتفقان معا على تدبير مؤامرة لقتله والخلاص منه، فلما لم يفلحا، عمدا الى مؤامرة ليشوها سمعة هشام، فقد سرقا منه حقيبة كان أودع فيها مبلغا من المال سلمه اياه الشيخ العلايلي لايداعه المصرف.

ويعلن هشام عن ضياع الحقيبة، ولكن الشابين المتآمرين يضعان الحقيبة ــ خفية ــ في مكان من منزل هشام،ثم يهاجمان المنزل ومعهما الشيخ العلايلي، وصديق قديم يدعى «حسن»، وهو ذلك الثري الذي كانت أم هشام تعمل خادما لديه. ويذهل الجميع أمام مفاجأة: فإن الثري «حسن» يعلن أمام الجميع بأن «عصام» ليس إبنه، ويحكي قصة أخذه من أمه «بثينة»، وتبنيه طوال الفترة السابقة. وهنا يتعانق الشقيقان: عصام وهشام، ويعترف عصام بدور «محمود ابو جرس» في تحريضه وتدبير المؤامرة ضد هشام.

والرواية ــ على هذا النحو ــ تحاول أن تتبنى مضمونا اجتماعيا هو «حلم القرية المثالية» التي ترقى بسواعد أبنائها، وبأموال الأغنياء الطيبين المجردين من نوازع الانانية والجشع. وهذا ــ في حد ذاته ــ حلم وطني كان يراود خواطر الشباب.

ويبدو أن الكاتب كان شديد الحذر من أن يساء الظن بالمنهج الاجتماعي الذي ينشده لاصلاح القرية، وهو منهج يقوم على أسس التضحية والعمل الشاق، والاحترام بين كل الطبقات الاجتماعية واحترام الملكية الفردية، والقيم الروحية، التي لا ينبغي التضحية بها في سبيل المال. وهذا التصور كان الشباب السعودي يرسمه تحديا لما كانت تروجه المذاهب الاجتماعية الهدامة.

وقد حاول الكاتب أن يرسم شخصيات روايته من الداخل، كما حاول أن يرسم ما نسميه ــ اصطلاحا ــ بالنموذج البشري، فهناك نموذج الخير ممثلا في «هشام»، ونموذج الشر ممثلا في «محمود ابو جرس»، ونموذج الغني الطيب ممثلا في «الشيخ العلايلي».. وهكذا.

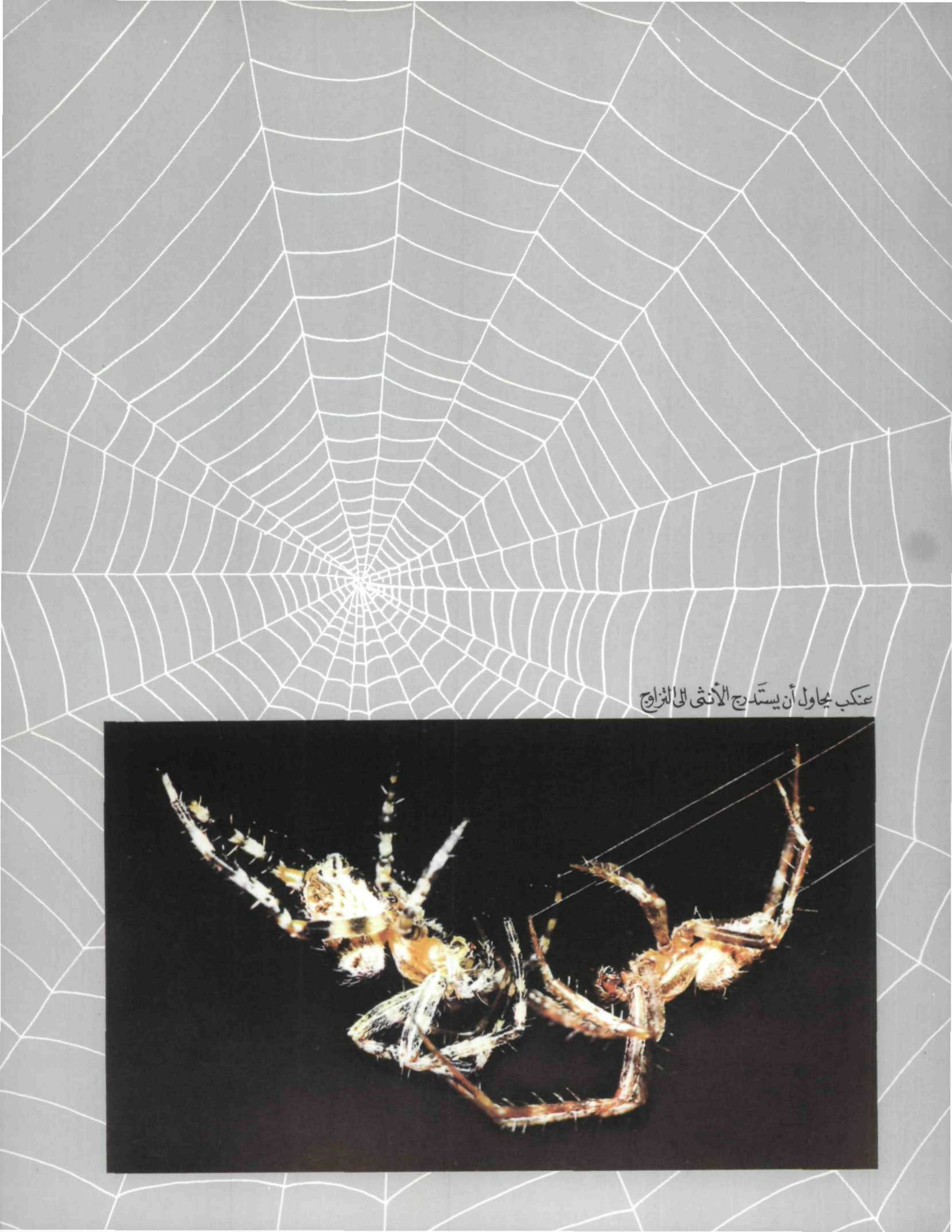
وبين الخير والشر يدور الصراع الذي منح الرواية نبضا وحركة وشيئا من الاثارة. إلا أن الكاتب لم يوضح لنا المسوغات المقنعة بقدوم «الشيخ العلايلي» الى القرية وتبنيه هذا المشروع لتطويرها والنهوض بها، كما لم يتعمق الكاتب بتحليل الشخصيات من الداخل. بل حاول أن يرسمها بشكل نمطي عام. ثم ان الكاتب قد أقحم على القرية شخصية غريبة عن تقاليدها وواقعها تماما، وان يقيم علاقات غريبة على أعراف القرية. فرسم شخصية «ألفت» متحررة من ملبسها. وجعلها تخالط هشاما وتلازمه غير عابئة بما يثيره مسلكها من الريبة والأقاويل.

أما لغة الرواية، فينبغي النظر اليها من زاويتين، الزاوية الأولى هي: الصواب والخطأ، والزاوية الثانية هي الأداء الفني. أما الجانب الأول، فربما بدا فيه للكاتب وجه من وجوه العذر، اذ كتب هذا العمل وهو في شرخ الشباب، ولم تكن مقاليد اللغة قد أذعنت له. ومن هنا إمتلأت الرواية بأغلاط في النحو والإملاء والصياغة واللغة على نحو ملفت للنظر حقا.

ومن المؤكد أن هذه الأغلاط حين يمر الكاتب بها ــ وقد بلغ ما بلغه من شأو بعيد ــ سوف تعكس له أصداء الماضي البعيد.

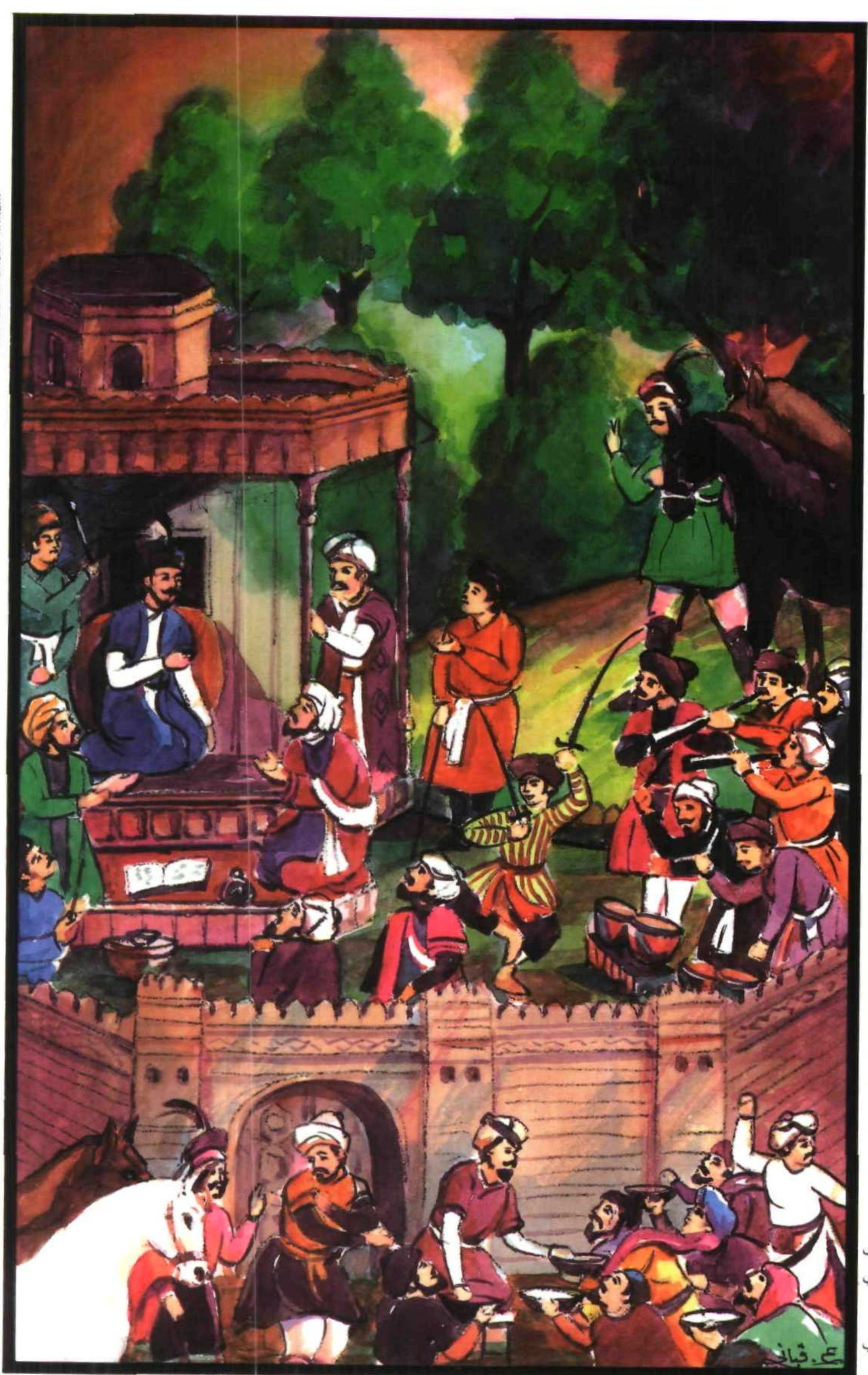
أما الأداء الفني للغة، فيعتريه في مواضع من الرواية الأداء المعاش. ومع هذا فإن رواية «وغربت الشمس» تمثل مرحلة متقدمة نسبيا من مراحل تطور الرواية السعودية تالية لمرحلة «البعث» لمحمد علي مغربي، و «التوأمان» لعبدالقدوس الانصاري، و «فكرة» لأحمد السباعي.

كما أن أقاصيصه تمثل مرحلة أكثر تقدما من المرحلة السابقة على ميلاد «قاتلة الشيطان» فهو ــ بحق ــ رائد من رواد الفن القصصي في الأدب السعودي الحديث □



عنكب يحاول أن يستدرج الأنثى الى التزاوج

PRINTED IN SAUDI ARABIA



منظر في مقدمة الصورة لتوزيع الأموال والاعطيات بمناسبة المولود الجديد، وفي الصورة الخلفية الرقص وقرع الطبول.

راجع مقال: «مدينة الفتح الاسلامية في سيكري»